النشر لمن يستحق

رواية

في صحبتك وطن

محمد الجيزاوي

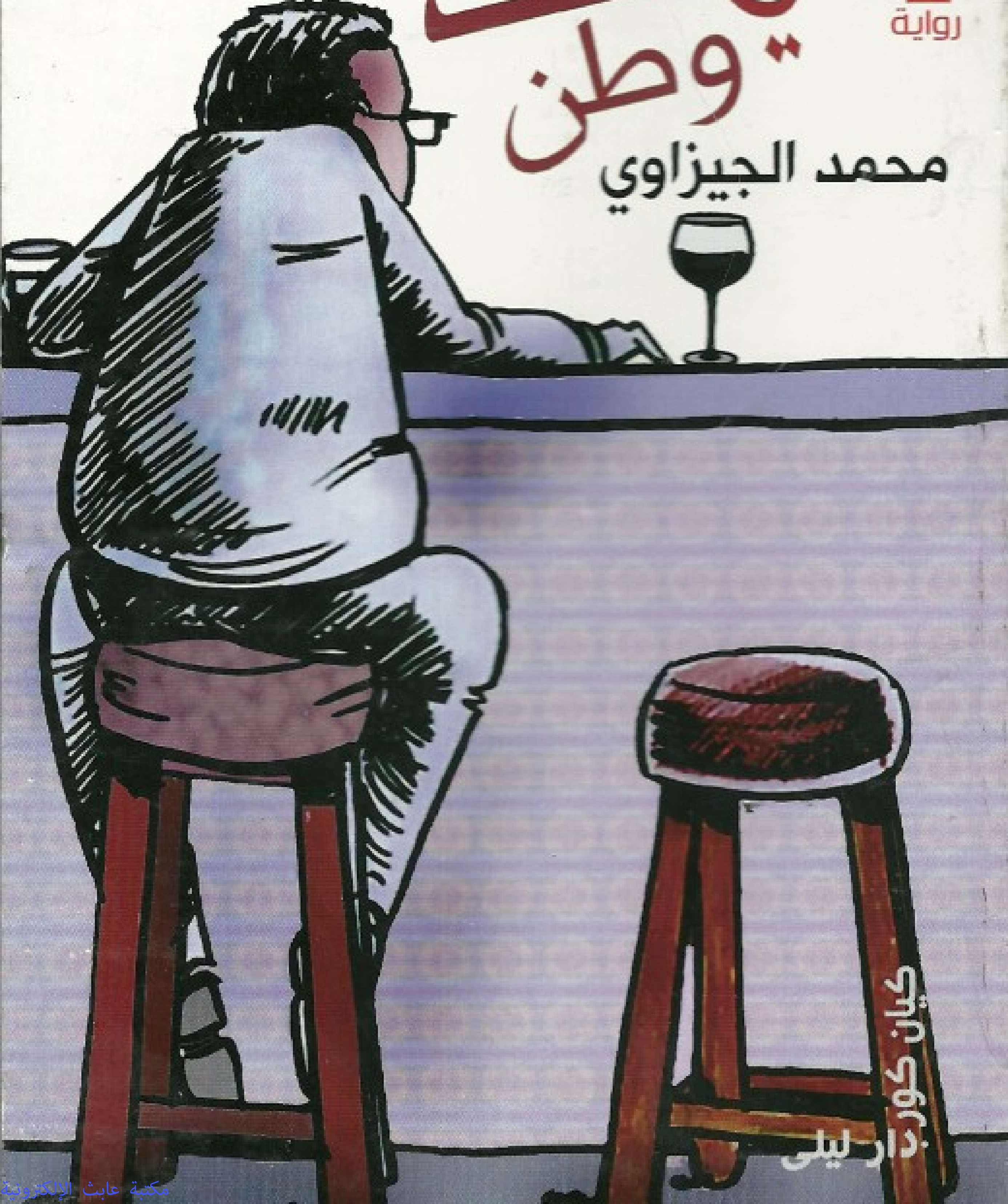

كيان كورب

دار ليلى

مكتبة عابث الإلكترونية

محمد الجيزاوي

"في صحتك يا وطن"

مكتبة عابث الإلكترونية

كيان كورب للنشر والتوزيع
(دار ليلى)

الكتاب:

في صحتك يا وطن

المؤلفان:

محمد الجيزاوي

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

★ ★ ★

إدارة التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★ ★ ★

رقم الإيداع :

©جميع الحقوق محفوظة.. وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الترقيم الدولي :

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)
البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

مكتبة عابث الإلكترونية

محمد الجيزاوي

"في صحتك يا وطن"

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

مكتبة عابث الإلكترونية

مكتبة عابث الإلكترونية

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب).. منذ ما يزيد على أربع سنوات.. قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) الذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها.. التي أصبح البعض منها كُتابًا محترفين بعد ذلك.. أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة.. لمعوا من خلالها.

ومع ازدياد كمِّ الأعمال التي يبدعها الشباب –خاصة بعد ثورة 25 يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر.. أصبحت سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة.. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات.. وإحجام كثير من دور النشر عن ممارسة نشاطها بتوسع.. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري.. كذلك صارت عملية النشر محفوفة

مكتبة عابث الإلكترونية

بالمخاطر.. التي تخيف طرفيها -الناشر والقارئ- على حدٍّ سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت -بشدة- اقتصاديا.. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال.. فكرنا في حل بديل.. هو "النشر لمن يستحق".. وتطورت الفكرة كثيرًا.. إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية.. وحرصًا منها على استمرارها في دورها.. وإيمانًا منها -كما عهدتموها- بالشباب الموهوب.

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام.. وعلى مراحل.. وبشكل استثنائي.. لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج.. على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم.. وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها.. ولله الحمد.. مع كبار الكتاب.

مكتبة عابث الإلكترونية

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب؛ حيث يضمن عـودة ما دفعه بعد عام واحد.. مع هـامش ربـح خفيـف.. إضـافة إلى الغرض الأسمى.. وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب.. عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية.. كما هي عادة عقود "دار ليلى".

- تـوفير عنـاوين جديـدة ذات قيمـة للـسوق المـصرية.. الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى -عز وجل- أن يكلل مجهوداتنـا بالنجـاح.. وأن ينال مشروعنا رضـاكم.. وكلنـا ثقـة أن كـثيرًا مـن الأسمـاء التي تنشر من خلال هذا المشروع ستصبح -مثل سابقيها- بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدَّة.

الناشر

مكتبة عابث الإلكترونية

مكتبة عابث الإلكترونية

الفصل الأول

فتحت رسالتك الأولى..

أستاذ عاصم يزيد..

قـرأت مجموعتـك القصـصية وأعجـبني معظمهـا.. تـستطيع التقدم إلى مقر الجريدة لمناقشة بعضها قبل النشر.

يمكنك القدوم في تمام السابعة مساء يوم الأربعاء المقبل.

قسم المواهب

سارة

مكتبة عابث الإلكترونية

ثلاثة أسطر حملت الحلم إلى قلـبي واقعًـا وحوَّلـت أحلامـي التي كانت أجنة برحم قلبي إلى مـشاريع حيـاة تنـبض بالأمـل! أي جنون قادني لحـب امـرأة لم أرهـا أبـدًا ولم ترنـي؟! هـل يمكـن أن تصنع بضعة أسطر عاصفةَ عشقٍ تطيح بأسرار القلـوب وتبعثـر هـدأة الصدور؟

ثلاث سنوات وحبك يكبر في صدري كعشب بـرِّي لا أعـرف متى زرعوه ولا من سقاه وأي حصاد سيكون معك.. الحصاد الحلو أم الحصاد المريـر! لمـاذا أتـرك كـل مـا في يـدي لأطـارد ظـلال الجنـون وأرقص فوق حبال الخيال؟ هل كـان حـبي لـك هروبًـا مـن إخفـاقي الكبير في تحقيق السعادة الحقيقيـة؟ أأنـت واقـع أم وهـم اخترعتـه لأختبئ فيه بهدوء بعيدًا عن ضجيج الفشل تمامًـا كمـا خبـأت حـب الوطن في عباءة الصمت وأنـا أراه يجلـدني كـل يـوم بـسوط الحرمـان فهربت من أسره لأسرك؟ فقد أدمنت أيادينـا مـذاق القيـود ونـسينا ملامح الحرية وغصَّت حلوقنا بطعـم الهـزائم فأدمنَّـا لعبـة الـركض خلف المستحيل.. فكما صارت حريـة الأوطـان بعيـدة المنـال وبقينـا نحلم بهـا علـى الـرغم مـن الحـدود والـسدود هكـذا اخـترت عـشقًا مستحيلاً لامرأة لا تعرفني ولم ترَني يومًـا.. اخـترت أن أختبـئ في

مكتبة عابث الإلكترونية

ظل الصمت حتى لا يفجعني الواقع فيك.

ثلاث سنوات من العذاب الحائر والقلق الراسخ في عمق صدري.. فهل كان حبك وهم الأدباء أم لعنة الأقدار التي أصابتني بهزيمة الوطن وهزيمة الحب ففي زمن الهزائم نحيا؟ فهل يمكن أن أحصل يومًا على حرية الوطن وحق السكن بقلبك؟ لتكن مشيئة الله.

هاهي الأقدار تمنحني لقاءً بك! تُرى كيف هي عيناك يا سارة؟ هل هما سوداوان حالمتان مثل حروفك؟ خمسة أيام تفصلني عنك.. خمسة سدود مترسة بصخور الساعات تحرسها عقارب الليل والنهار.. سأزحف في دهاليزها حتى أصل إلى قمتك.. حتى ألامس شرفة عينيك.

أنا من تحركت نحوه أسراب النساء وجدتني أنزوي إلى كهفك المجهول وأطلب بابك الذي أجهل طريقه.. أرسلت لك عشرات الرسائل وأخيرًا جاءني الأمل يمتطي ثلاثة أسطر.

ماذا سأقول لك؟ هل ستشفع قصصي لديك كمهر عاشق لا يملك إلا الكلمات؟ بأي وجه ستلاقينني؟ بوجه تلك التي تسدي

مكتبة عابث الإلكترونية

خدمة لكاتب مغمور بأحلامه.. مسربل بآلامه وجراح وطنه.. أم بوجه أنثى تدرك بغريزتها أي صنف من الرجال أنا لتمنحني كأسًا من حب وباقة من وعود؟ هل أحكي لكِ حماقات عمري وكم أنثى اتخذتها زادًا ليوم لقائك حتى أقابلك بخبرة رجل جرَّب أصناف النساء؟ هل يروقك أن تعرفي أنني رجل متوج على عرش من النساء خلع عن نفسه التاج ونزل عن كرسيه ليمنحك قبلة إخلاص مشفوعة بقلب عاشق أحبك في ظلام حياته من دون أن تعرفي بسره ولا بوجوده؟

أخيرًا جاء الأربعاء يحمل معه أربع أمنيات: أمنية بأن أراكِ أخيرًا.. وأخرى بأن أسمع صوتك يحدثني على مسافة حميمية.. وثالثة بأن تثقي بأنني مختلف.. والأخيرة أن تكتشفي شوقي إليكِ من دون أن تضطريني للجلوس على كرسي اعتراف أفقد به بقايا كبريائي.

ترى أي رابطة عنق ستناسب ذوقك؟ وأيها ستسافر إليها عيناك الذواقتان لأرتديها لأجلك؟ تراكِ تحبين اللون الأزرق مثلي؟ في هدوئه وقار وشيء من أسرار لون السماء وجموح البحر.. ليكن

مكتبة عابث الإلكترونية

الأزرق إذًا لون رابطة عنقي وقميصي أيضًا وليكن الأسود بنطالي.. لن أرتدي جاكيت لتحيطني عيناك بدلاً منه.

أخيرًا وصلت إلى مبنى الجريدة ودلفت إلى مكتبك.. الكل يعرفك.. ترتسم على وجوههم بسمة حانية بمجرد أن أذكر اسمك متسائلاً عن مكتبك.. اسمك كلمة سر للسعادة لا يمس أذن أحدهم إلا ويسري نسيم الثقة بقلبه ويرد بابتسامة.. بينك وبين السعادة ميثاق شرف ورحمٌ موصولة بالصدق.

أزعجني شعورهم بك.. كل أولئك يراودهم خيالك مثلي؟ هل يقضون الليل معك بأحلام عذرية مثلي؟ اللعنة على شركاء متطفلين يقتحمون خلوتي بك.. يقحمون قلوبهم كأشواك بيني وبينك. أشعر أنني أمتلكك قبل أن أصافحك وقبل أن أراكِ! ليس منهم من يحبك على طريقتي فقد أجبرتهم رقتك على حبك بينما أجبرني جنوني على عشقك.

بيني وبينك باب موصد هل أطرقه بيدي أم أنتظر ليخبرك طيف العاشقين أن ثمة مجنونًا بك خلف الباب؟ حسنًا.. حلت السكرتيرة القضية وتكفلت بالطرق نيابة عن شوقي.

مكتبة عابث الإلكترونية

– أهلاً أستاذ عاصم.

أخيرًا رنَّ صوتك.. تمامًا كما انتظرته.. صوت دافئ.. ليس بالرفيع الذي يحمل طيش النساء ولا الغليظ الذي يخبر عن قسوة أنثى.. صوت امرأة في ثوب حواء الأولى.. عينان سوداوان تخترقان أسرار من تراهما ولا يفك أحد شفرة سرهما الموصد على قلبها.

آآآه.. أي شعور هذا الذي انتابني عند مصافحتك حتى نسيت أن أسحب يدي سريعًا كما يفعل الرجال ليوهموا الآخرين بعفتهم ونبل نواياهم؟ تركت يدي نائمة بين أصابعك ويدك تسحق ثقتي وتخلِّف ارتباكًا مزعجًا يفشي سرَّ رجل له نية مسبقة وخطة تم وضعها لمثل هذا اللقاء.

جلست قبالتها أخيرًا.. بسمتها لم تغادر شفتيها شرقيتي المذاق أندلسيتي الهوى:

– قرأت قصصك أستاذ عاصم.. أنت موهوب فعلاً.. ومفعم برومانسية مختلفة.

حسنًا جدًّا.. تحققت الأماني الثلاث.. الأولى في أول خمس دقائق!

مكتبة عابث الإلكترونية

– أشكرك أستاذة سارة.. تمنيت فقط أن تحوز إعجابك حتى لو لم تُنشر!

ثم تداركت جملتي الفاضحة قائلاً:

– لأنني أعرف أنك أديبة مميزة ومجرد إعجابك بأحد أعمالي هو شهادة ميلاد لقلمي ولي أيضًا!

ابتسمت دون أن يخدعها إطرائي فثقتها لم تغادرها.. ليست من النوع الذي ينسحق أمام الكلمات.. سيدة هي بحق.

– قرأت قصصك كلها.. وبعضها لأكثر من مرة.. ووقع اختياري على قصة "الظلال". أحب ذاك النوع الذي يمارس فيه العاشق حبَّه عن بعد.. ففعل الحب يقتله.. وكم رائع أن يبقى مشروع حب.. فبمجرد أن نبدأ في ممارسة أحلامنا تسقط روعتها. لا مكان للحلم خارج إطار الفراش.

ابتسمت متسائلاً:

– أي الأبطال أعجبك أكثر: "باسل" أم "ندى" التي أحبته في عالمها الخاص؟

– لا يروقني الرجال من صنف باسل بطل قصتك.. فإن

مكتبة عابث الإلكترونية

الرجـل كـثير النـزوات يفقـد بكـارة قلبـه وأنـا لا أقـدر الرجـال المستعمَلين. لكـن نـدى احترمـت مـشروع حبهـا وعلمـت أنـه أكـبر قداسة من أن تجعله قصة تمشي على قدمين.. ألم أخـبرك أن الحـب يموت حين نمارسه فعلاً؟

- حسنًا لتكن قصة "الظلال" إذًا فأنا أيضًا أحبها.

- طبيعي أن تحب أفرادًا منحتهم الحياة بنفسك ولا وجـود لهم من دونك.

- لكـن القـضية ليـست أن نخـترع قـصة حـب.. لكـن أن تخترعنا القصة نفسها! كم نحتاج أحيانًا إلى تجربة شعور الأسر! هل أسرتك قصة من قبل أستاذة سارة؟

نظرت كمن يستنكر جرأة السؤال.. فتداركتُ:

- عفوًا سيدتي.. فلطفك أشعرني أنني أجالس صديقًا قديمًا.

- لا عليك أستاذ عاصم.. جيد أن تشعر بهذا لكن ليس جيدًا أن أجيب عن سؤال مثله.

- لكن لماذا لم أقرأ لك قصة أبدًا على الرغم من أنكِ مـشرفة قسم المواهب؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- بعضنا يكتب القصة وبعضنا يقرؤها.. الزهرة تخرج عطرها ونحن نستنشقه. هناك من يخبز وهناك من يأكل.. دوري هو استنشاق الأدب والتمييز بين العطر الأصيل والمزيف.

- ترى هل أعجبك عطري؟

ابتسمت:

- هو ما دعاني لمراسلتك.. كم تريد في قصتك يا أستاذ عاصم؟

- هل تقصدين الأجر؟

- نعم الأجر.

- لا يمثل فارقًا بالنسبة لي.. حددي ما ترينه مناسبًا.

قالت وهي تعبث بقلم بين أصابعها.. كنت أحسده لأنه حاز شرف مداعبتها.. تقلبه بين أصابعها كأنها تخشى أن توقظ شهوة المداد بداخله:

- عادة نحن لا نعطي أجرًا للكتاب المبتدئين.. لكني أعتقد أنك ستكون ضيفًا كريمًا على جريدتنا لأكثر من قصة.. لذا لا بد من إعطائك مقابلاً.. ماذا تقول في ثلاثة آلاف جنيه مقابل خمس

مكتبة عابث الإلكترونية

قصص؟

قلت بلا تردد:

- جيد.. أوافق بالطبع.

- شكرًا لك يا أستاذ عاصم.. سأقوم بتجهيز قصة "الظلال" ليتم نشرها بعد غدٍ على الأكثر.

ابتسمت لها وصافحتها مستعدًّا لمغادرة الحلم. وقبل أن أصل للباب قالت:

- أستاذ عاصم.. من فضلك اترك هاتفك المحمول عند السكرتيرة.

فقلت متحامقًا:

- عفوًا لا أملك غيرة لأتركه!

ابتسمت وهي تراوغ:

- أقصد أن تترك الرقم ويمكنك أن تحتفظ بالجهاز.

- عفوًا هكذا الأدباء عندما يقررون المزاح يرتكبون الحماقات!

مكتبة عابث الإلكترونية

فابتسمت دون أن تظهر أسنانها.

غادرت أخيرًا وقد حصلت على أكثر مما توقعت.. لكن ليس أكثر مما تمنيت.. فالعاشقون عدوهم الصبر.. لا احتمال لعاشق عن معشوقه أبدًا.. الانتظار تميمة العذاب لكل المحبين.

رجعت إلى بيتي.. ابتسمت أمي وقالت:

– رجعت بوجه مختلف يا عاصم "يا رب تكون موفق وما يخيبش تعبك يابني".

– نعم يا أمي حمدًا لله سينشرون لي خمس قصص تباعًا.

قبَّلت يدها ودخلت إلى حجرتي واستلقيت على سريري متأملاً سقف غرفتي. ما أبشع أن يحد بصرك سقف في ليلة حب!

رجوت لو أنني استلقيت تحت عرش السماء أشارك السحاب في تحليقه وأقنص من النجوم ضوءها.. لكن لا بأس.. فهذه الليلة لن أكتفي بأمنيات لقاء سارة ولكن سأستعيد أحداث لقاء تم بالفعل.. لن أغسل يدي.. كيف أتخلص من أثر لمستها؟ الماء سوف يلوث حميمية المصافحة فليس الماء يغسل دائمًا.. أحيانًا يمحو ما يجب أن يبقى.

مكتبة عابث الإلكترونية

أنتِ امرأتي الليلة يا سـارة! ولأنتظـر مـاذا سـتمنحينني في أيامي المخبأة في عباءة الغيب.. لتكن رحيمًا بي أيها القـدر.. فإنهـا أمنيتي الوحيدة.

مكتبة عابث الإلكترونية

الفصل الثاني

مرَّ يوم الخميس دون أن أشعر باختلاف نهاره عن ليله فما زلت أسبح في لقائنا.. يملأ صوتك كل ما حولي ويحيطني شعوري بك فلا أملك أن أقاومه ولا أرغب أيضًا.

استيقظت في الجمعة باكرًا وحصلت على الجريدة لأجد قصتي منشورة في صفحة كاملة.. وأروع ما في الأمر أنها مقدمة بقلم سارة بثلاثة أسطر.. موعودٌ أنا بأسطرك الثلاثة يا سارة:

"أقدم لكم قراء صفحتي الكرام قصة لشاب من شباب

مكتبة عابث الإلكترونية

الأدباء.. قلم حالم يخلط الواقع بالحياة والحلم بالحقيقة ليقدم قصة تحمل أحزان حب عذري.. ما أروع أولئك الكتاب الذين يرفعوننا من أزمة الواقع لقمة الأحلام التي تجول بخاطر كل منا لتذكره بحب فقده وأمنية تآمرت عليها الأقدار".

قرأت مقدمتك طوال اليوم.. حقيقة لم أقرأ حرفًا من القصة التي أحفظها عن ظهر غيب.. حاولت أن أكتشف عالمك من سطورك التي تحدثت عن قلمي.. شعرت أنها رسالة عشق لي وأنك تمنحين خوفي قبلة ثقة وتمسحين على رأس أمنياتي بأنامل لها مذاق كلمة اطمئن.

وعلى مدى خمسة أسابيع توالت قصصي وتوالت مقدماتك يا سارة.. مع كل قصة أقترب منك خطوة.. ومع كل تقديم لك تتقدمين مني خطوة.. ترى متى سأعيش قصتي معك فإني أخالفك الرأي في الحب؟ ما قيمة مشاريع تزيد من حرماننا؟ أي لذة تلك التي نمارس فيها الحب على فراش العذاب؟ أشتاق أن أعيشك وأحلم بأن تكتبيني أنت.. اجعليني بطلاً لقصتك.. اجعليني سرًّا لا تبوحين به إلا بين يدي.

مكتبة عابث الإلكترونية

مرت الأيام بعدها وأنا أنتظر اتصالك الذي طالت غيبته..

ذهبت إلى مقهاي المفضل لأجد صديقي "محمد اليماني" تاجر العطور.. تربطني به صداقة قوية ويشاركني هوايتي في لعبة الشطرنج التي أجد بها لذتي بعد القراءة والكتابة. الشطرنج هو مباراة حياة.. والحياة هي رقعة شطرنج نوائم فيها بين الدفاع والهجوم. معك يا سارة ألعب الشطرنج بطريقة مختلفة.. لا أهاجم لأنني لا أعرف من أين يمكن أن أحمل عليك ولا أدري أي المواضع في سور قلعتك قابل للانقضاض.. ولا أستطيع الدفاع أيضًا لأنني أحلم أن تقومي بغزوي حتى القلب.. أتمنى أن أمنحك جسدي رشوة استسلام وأوقع معك معاهدة سلام بإمضاء عقلي وختم قلبي.. فلأبقى في منتصف رقعة الشطرنج أمكث.. أنتظر هجومك أو مهاجمتك.

سألني محمد:

- ما لي أراك واجماً؟ خليقٌ بك أن تفرح وقد نُشرت قصصك في أكبر جريدة وحازت قبولاً كبيرًا من القراء.

سألته:

- ما رأيك في سارة؟

مكتبة عابث الإلكترونية

– من سارة؟

– التي تكتب المقدمة لكل قصصي المنشورة.

– نعـم كاتبـة مميـزة هـي.. أتابعهـا دائمًـا وتعجـبني مقالاتـها.. لكن ما قضيتها؟

– تشغلني منذ فترة! متيمٌ أنا بأسلوبها.

قال مازحًا:

– بأسلوبها أم بها؟!

قلت:

– بهما!

رد بوجه جاد:

– اجعل تركيزك في نشر أعمالك يـا عاصـم ولا تجعـل شـيئًا آخر يشغلك.

– يا صديقي.. الكاتب لا يستطيع أن يكتب حرفًا إن لم يكن مشغولاً بقضية.. وقد صارت هي قضيتي.

– لا أفهمك يا عاصم.. أنت لا يربطك بها أي شيء!

مكتبة عابث الإلكترونية

- وهذا ما يشغلني يا محمد! إنني لا أجد رابطًا بيننا نتواصل على قاعدته.. هل تعرف يا محمد؟ أنا متابعٌ لها منذ ثلاث سنوات.. أحتفظ بكل حرف لها سواء ما تكتبه من خواطر في عمودها بالجريدة أو على مدونتها الخاصة.. أحتفظ بنسخة من كل كتاباتها ولها صورة صغيرة لا تغادر حافظتي اقتطعتها من الجريدة منذ فترة. هذه المرأة أعادتني مراهقًا لا أدري هل أنا معها الكاتب الناضج أم المراهق الأحمق ولا يعنيني أن أكون أيًّا منهما.. يعنيني فقط أن أظل معها ولو على مساحة عمود في جريدة أو مدونة على الشبكة العنكبوتية. منذ أن تعلقت بها وأنا متنسك عن كل ما سواها من النساء.. أمارس معها لعبة الإخلاص بلذة عجيبة.. أغار على غيرتها من أن تمس يدي امرأة أخرى ولو على سبيل المصافحة. أعلنت نفسي وقفًا عليها وحكرًا على وجودها ورهنًا لحبها.. مرهون أنا يا صديقي على حب امرأة لم تكن تعرف بوجودي قبل شهرين.

لا بأس.. دعنا الآن من الجريدة ومَن بها.. ما بالك بمباراة شطرنج؟ أشتاق للنصر أو الهزيمة.. فقد أرهقني أن أظل واقفًا بين بين.. لا منتصرًا ولا مهزومًا.. فقط موجود.. ما قيمة الوجود بغير

مكتبة عابث الإلكترونية

نصر ولا هزيمة؟ فمن دون تجربة مربكة نصبح مجرد أشياء من جنس الكائنات المتحركة على قدمين.

– دعك من الشطرنج الآن! ماذا ستفعل مع علياء.. تلك المسكينة التي تحبك منذ سنوات وتنتظر يومًا يجمع بينكما؟

– علياء قضية أخرى لا أدري ماذا أصنع معها! كلما تقابلنا أطالبها بهدنة لتراجع فيها حساباتها وأكرر لها أنني أشك في قدرتي على إسعادها.. تلك الحجة التي يتذرع بها كل رجل ينوي أن يرحل عن حبيبته.. علياء لها عندي حب خاص أو مكانة خاصة.. لكنه ليس الحب الذي أعرفه أو أرضاه لنفسي.. إنه حب أخترعه.. وأنا لا إيمان لي إلا في حب يخترعني.. لا أريد حبًّا أمتلك خيوطه بل يمتلك هو خيوطي.. الحب يوجدنا ولا نوجده بأنفسنا.. الحب ليس إرادة ولا قرارًا.. الحب قدر لا نملك إلا أن نشاهده ونسير على خطاه التي يرسمها هو.

– إذًا أنت تبيع الذي تدري بالذي لا تدري.. لا يمكنك الحصول على كل شيء يا عاصم! أنت تريد أن تحصل على من يحبك ومن تحبه! إن الذي يختار كل شيء لا يحصل على أي شيء.. علياء

مكتبة عابث الإلكترونية

قدمت لك كل ما تستطيع بشهادتك أنت.. كم من مرة أخـبرتني عـن حبها لك وتفانيها من أجلك!

فابتـسمت دون أن تبـدو أسـناني أو ينفـرج فمـي ابتـسامة المكتئب وقلت:

- تلك هي القضية يا محمـد.. أنـا دائمًـا كنـت أحـدثك عـن حبها لكن هل تذكر مرة واحدة حدثتك فيها عن حبي أنا لهـا؟ هـل أخبرتك يومًا أنني سهرت من أجلها؟ هل بكيت بين يديك من فـرط شوقي لها؟ إن الحب الذي لا يمنحنا لذة البكـاء لـيس بحـب! بـين الحب والبكـاء أواصـر صـداقة يختلـف معهـا طعـم البكـاء.. نبكـي لحرماننا أو لفرط لذتنا.. تستوي فيه اللذة والألم ونحـرص عليهمـا على حدٍّ سواء؛ لأن اللذة هي دليل الـشوق.. والألم برهـان الـصدق.. وأنا لم أعرف مع علياء اللذة ولا الألم! كل ما أعرفه هـو الاقتنـاع.. فقط أنا مقتنع بوجودها كاختيار وليس كقضاء.

قال كمن حار في الدفاع عن قضيته:

- أنا ما زلت أسألك: ماذا تنوي أن تفعل معها؟ هـل يمكـن أن تترك فتـاة تحبـك مـن أجـل كاتبـة لا تعـرف بالكـاد إلا اسمهـا

مكتبة عابث الإلكترونية

ويشاركك فيها كل من يقرأ لها؟

سارة كاتبة مشهورة.. ما الذي يمكن أن يغريها بك؟ فلماذا تترك علياء من دون محاولة جادة منك لإقامة حياة بينكما؟ حان لك أن تترك الأوهام يا عاصم وأن تكون جادًّا.. أنت على مشارف الثلاثين وعلياء لا يمكن أن تنتظرك إلى الأبد!

- حسنًا يا محمد فلتقم أنت بهذه المهمة من أجلي.

- أوافق.. هل تريد أن أفاتحها في جعل علاقتكما رسمية أو أخبرها بأنك مستعد لخطبتها وإن كنت أفضل أن تخبرها أنت بنفسك؟

فتجهمتُ:

- أنت تصعِّب الأمر عليَّ يا محمد! أنت لم تفهم قصدي.. أنا أريدك أن تخبرها بأن تبتعد عني! أنا لا أستطيع الاستمرار في علاقتنا.

- أنت مصرٌّ إذًا على موقفك.. لماذا لا تخبرها قرارك بنفسك؟

- صعب جدًّا يا محمد! لن أحتمل دموعها! ما أشده من ألم

مكتبة عابث الإلكترونية

ألا نجد شيئًا نمنحه لمن أحبونا غير البكاء. كيف أكافئ كل ما أعطتني من بسمات بسيل من دموع؟ لا.. هذا صعب جدًا! لن أحتمل أبدًا.. أرجوك قُم بهذا يا محمد من أجلي.

- كم أنت أناني يا عاصم! ألا تريد حتى أن تدفع ضريبة قرارك باحتمال شيء من الألم في مواجهة تلك المسكينة؟ ألا تريد أن ترى ماذا جنت يدك عليها؟ وهل غيابك سيخفف من وطأة الأمر؟ هل عدم رؤيتك لدموعها يعني أنها لن تبكي ولن تتألم؟ أنا ما رأيت في حياتي فتاة أحبت رجلاً مثلما أحبتك علياء.. إنها لا تعيش إلا لك.. ولا تتنفس إلا بك.. أقسم إنها لا تستحق هذا الجزاء. لكِ الله يا علياء.. ليتني أستطيع أن أخفف عنها!

- بل أنا واثق من قدرتك على التخفيف عنها.. أرجوك يا محمد لا تضاعف آلامي! هذا خير لها! هل تعتقد أن علياء تقبل بوجودي معها لأنني فقط ملتزم بهذا إنسانيًّا؟ صدقني هذا سيقتلها كل يومٍ ألف مرة.

- حسنًا يا عاصم سأقوم بالأمر.. أعدك سأبذل كل ما أستطيع.

رجعت إلى البيت أخيرًا بعد حوار مرهق مع محمد.. عدت

مكتبة عابث الإلكترونية

لأجدني وحيدًا مرة أخرى.. ما الذي أفعله بنفسي؟! ها أنا أترك من أجلك يا سارة كل ما لي.. ها أنا أغتسل من ذنوبي ومن فضائلي أيضًا لأكون لك رجلاً بلا سابقة إنسان.. لأكون معك بعثًا جديدًا وآدم الأول الذي يليق بحواء الأولى.. ها أنا أهدم كل الصروح لأقيم بيننا قصرًا من خيال على أرض من رمال.. ها أنا أختار الحلم المستحيل بدلاً من الحقيقة السعيدة في رأيهم.. هل حب علياء هو مهر جديد أقدمه في محرابك؟ كم من الأضحيات والقرابين يلزمني أن أقدم لأحصل عليك؟!

دخلت أمي إلى الحجرة تحمل لي طعامًا وأصرَّت على أن آكل معها وأنها لن تأكل من دوني.. كانت تعرف دائمًا نقطة ضعفي أمام ضعفها.. لا أملك إلا طاعتها.. مسحت على رأسي وقالت:

- أراك مشغولاً هذه الأيام وحالك لا يعجبني! أخبرني يا حبيبي ما الذي يهمك ويحزنك.. لعلك تجد عندي الراحة! يكفيني حزن انشغالي على أخيك الذي سافر ولا أعرف عنه شيئًا منذ سنوات لولا اتصاله الأخير لذهبت روحي حسرة عليه.. فلا تزد من همي يا عاصم!

- مجرد رؤية وجهك راحة لي يا أمي! لكن فقط ادعي الله

مكتبة عابث الإلكترونية

من أجلي أن يمنحني قدرًا رحيمًا.. وإن كان قضائي قاسيًا فاسأليه أن يمنحني القدرة على تقبله بشرف رجل.

بكت أمي وقالت:

- نفسي فداك يا عاصم.. ثق أن الله يا بني سيجعل لك مخرجًا! لكن لا تنشغل عن الصلاة والدعاء فإن الله لا ينسى من يذكره.. ألقِ بأحمالك على بابه فإنه كريم لا يرد سائلاً.

ألقيت برأسي على صدرها وأجهشت بالبكاء حتى فرغت من الدموع ولم تبقَ إلا حشرجة النشيج.. إن صدرًا نبكي عليه بغير خجل هو محراب قدسي نعترف فيه بخطايانا ونمارس استغفارنا بأدعية من دموع.

خرجت أمي بعدما تلت على رأسي آيات من القرآن بصوتها الحاني وهي تمسح على رأسي وظهري وصدري كمن يريد أن يغسل جسدًا من آلام روح ويمحو حزنًا مطلاً من شرفة جسد. ما أعظمك يا أمي! طالما ربطت بيني وبين السماء ومهدت لي طريقًا من دعاء.. كنت أسمعها في صلاة الليل وهي ترفع كفيها ضارعة أن يجعلني الله من أهل الدين.. لماذا خابت دعواتك يا أمي وأنا موقن بصدقك وواثق

مكتبة عابث الإلكترونية

من كرم الإله؟ تراني هل أنا العنصر الفاسد في المعادلة الثلاثية بين الداعي والمدعو والمدعو له؟ إلهي لتشملني رحمتك إن لم أكن أهلاً لعفوك فأنت أهل لأن تعفو.

غلبني النوم وأنا على سريري بكامل ملابسي التي قضيت بها يومي. كانت ليلة مربكة كثرت بها أحلامي الغريبة.. تارة أحلم أنني مربوط في قطار يسير بأقصى سرعة وأنا مسحول على قضبانه.. ومرة أراني أغوص في بحر حتى الغرق.. يتحطم جسدي تحت قبضة الماء وتنحبس روحي في جوف قوقعة سوداء محروسة بترانيم سحر قديم.. وتارة أخرى أراني مشنوقًا في حبل يمتد بين الأرض والسماء ترجمني النجوم بشهاب ثاقب ويأتي طائر أخضر فيمزق صدري ليلقي بقلبي في يد الهواء وأنا أراه يتيه في سحابة سوداء فلم أعد أراه ولا يراني.. وأخيرًا جاء النهار لينقذني من يد ليل استبد براحتي وقضى على طمأنينتي.

مر أسبوع آخر أنتظر هاتف سارة ليحيي موت أملي ويوقظ نوم أمنياتي لكنها بخلت بمنحي بعض صوتها.. كلما رن الهاتف اضطربت خشية ألا تكون هي فأتجرع حسراتي.. وخشية أن تكون

مكتبة عابث الإلكترونية

هي فينفضح شوقي لها ولهفتي عليها.

ذهبت إلى عيادتي التي صرت أهملها كثيرًا.. وجدت في الآونة الأخيرة رغبة عارمة في العمل.. حتى إنني أصبحت أذهب قبل موعدي بساعتين أو ثلاث ولا أغادرها حتى بعد الانتهاء من مقابلة المرضى.. فليس لي طاقة على مواجهة نفسي من دونها.. ما أثقل شعور الخيبة.. وما أشد عذاب من ينتظر شخصًا على الطرف الآخر ولا يدري هل ما زال يذكره أصلاً أم لا.. كانت سلواي الوحيدة أن أمنح بسمة لطفل كان يصرخ منذ قليل.. ما أجمل أن نمنح السعادة لأحدهم.. حقيقةً إنهم هم أصحاب الفضل حين يعطوننا الفرصة لإسعادهم.. طب الأطفال أشبه بالاعتناء بحديقة مزروعة بأطفال يذبلون والطفولة هي الصفحة البيضاء في حياتنا.. وحينما أعالجهم أشعر أنني أعدت لصفحتهم نصاعة البياض.. كل طفل أعالجه كأنه هو من يعالج جرح قلبي.. كل بسمة أزرعها بشفاههم كانت ترفع يد الكآبة عن رأسي.

وفي يوم خميس وقبل مغادرتي العيادة حضر لي زوجان يحملان طفلاً في الثالثة من عمره يصارع الموت وسط بكاء أمه المرير وذهول أبيه. أخبراني أنه شرب كوبًا من الكلور الخام كان يظنه

مكتبة عابث الإلكترونية

كوبًا من حليب.. الطفل بين يدي يئن مثل هرة صغيرة عمياء ينهشها برد الشتاء بعيدًا عن أمها.. كعصفور بين فكي ذئب يغرس أنيابه في جسده الضئيل. حاولت أن أعمل له غسيلاً سريعًا باذلاً كل طاقتي لأستنقذ الطفل من بين مخالب الموت ولأستنقذ أبويه من بين فكي الحسرة.. لكن الطفل لم يحتمل الأمر.. وبعد دقائق غربت شمسه قبل أن تشرق.. وسقطت ورقته قبل أن تنبت. مات الطفل وأنا محاصرٌ بخيبة جديدة وفشل جديد.. أرى حياته تتلاشى من بين يدي تمامًا كما تلاشت السعادة من حياتي.. ضاعف حزني أن علمت أن الأبوين رُزقا به بعد عشر سنين من الحرمان من الإنجاب.. فقدا كنزهما الوحيد الذي وضعاه بين يدي فعجزت عن أن أفي بثقتهما.. صارت يدي تمنح الموت أكثر من منحها الحياة! يدي التي منحتني حبًّا بطعم الشقاء ومنحت علياء غدرًا بطعم المهانة.. هاهي تمنح هذين الأبوين فشلاً بطعم الموت.

حمل الوالد المكلوم زهرته التي سقطت أوراقها وانهار غصنها.. حمل فراشته التي أحرق الموت جناحيها.. حملا حلمهما الصغير ميتًا ملفوفًا في شال أمه الأبيض.. جاءا إليَّ يطلبان الحياة وخرجا من عندي يحملان الموت.. طرقا بابي على أنه باب أمل

مكتبة عابث الإلكترونية

فأعطيتهما بدلاً منه مقبرة للصغير.

عدت إلى بيتي أحمل ألمًا فوق الألم وجرحًا في جوف الجراح.. عدت لبيتي.. عدت لغرفتي التي صارت خزانة مثقلة بأسراري الثقال تحوي جدرانها خيبتي ويحوي صدري آلامي.. لست أدري أيهما أكثر صبرًا! تراه جسدي أم الجدران؟!

في هذه الليلة أخذت قرارًا بالتوقف عن ممارسة الطب ولو لحين فقط.. وقررت أن أكمل دراسة الماجستير في الجراحة العامة.. هذا المشروع الذي طالما أجلته وأهملته. لست أدري لأي شيء قررت ذلك.. هل هو هروب من مواجهة الموت مرة أخرى.. أم لأنني صرت خبيرًا بالجراح.. أم هو هروب من حبك يا سارة؟ فدائمًا ما نبحث عن شيء يلهينا عن خيبات قلوبنا نخبئ فيه جراحنا. من أكثر مني جراحًا أيها الكون؟ فامنحيني يا أقداري القوة كي أمسك مشرطًا لأجتث جراح الآخرين إذ عجزت عن اجتثاث جراح نفسي. أيهما أشد ألمًا وأيهما أصعب في الزوال: جرح غائر بالجسد أم جرحٌ غائرٌ بالروح؟

مع الأيام صرت أكثر ثقة بالقضاء.. أمشي وحبله ممتد من عنقي بطرف وبرحم الغيب بطرف آخر.. أسير صامتًا أتلقى

مكتبة عابث الإلكترونية

ضرباتي بصبر وشيء من الثبات.. عندما ذهبت إلى المشفى الذي أعمل به وأخبرت المدير بقرار الاستقالة استنكره بشدة ورفض قبول استقالتي وزعم أنني من أفضل الأطباء الشبان الذين يتوقع لهم مستقبلاً مشرقًا. عن أي إشراق يحدثني وقد صرت لا أتقن إلا لغة الغروب والهروب؟! الاستقالة كانت ستوفر على نفسي كثيرًا من العناء.. بها سأنسى الطفل الذي مات بين يديَّ.. وبها لن أضطر إلى مواجهة علياء التي تعمل محاسبة بالمشفى.. علياء التي مر على علاقتي بها سبع سنوات منذ تخرجي وعملي بالمشفى طبيبًا تحت التمرين وسرعان ما حصلت على ثقة الجميع وحبهم.

دار أمام عيني شريط ذكرياتي مع علياء منذ لقائنا الأول حينما تعرفت إليها بعد شهر من العمل ذات غداء بمطعم المشفى.. وتوالت لقاءاتنا به على الرغم من أنني لم أكن أستسيغ طعامه.. فليس شيء أقبح من أن تتجرع طعامًا بنكهة المرض وأنت ترتدي البالطو الأبيض.. ولكن كان وجودها يضفي بهجة تنسيني كل ما حولي.. وصرت أتآمر للحصول على دقائق تجمعني بها حتى جاء يوم طلبت فيه مقابلتي خارج المشفى لتستشيرني في أمر مهم يخصها.. وعلى الفور رحبت بتقديم مساعدة فرحًا بثقتها.

مكتبة عابث الإلكترونية

قابلتها بأحد مقاهي وسط البلد اسمه "البورصة".. ذاك المقهى الذي يزدحم بالمصريين والأجانب على حدٍّ سواء.. ويجتمعون كلهم على لقاءات حميمية بين الأصدقاء والعشاق.. ولم أكن أدري أي الصنفين أنا وعلياء.. فقد كنت أعرفها بالكاد منذ أسابيع لا تسمح بصداقة قوية وقطعًا لم نكن عاشقين.

على أي حال فقد اجتمعنا بعيدًا عن تلصص الزملاء.. فإن آخر شيء تشعر به في مؤسسة بمصر هو الخصوصية.. وأي حوار بين زميل وزميلة يكون الحديث فيه هادئًا والعيون متواصلة فورًا تنهال توقعات الآخرين بأنها قصة حب تبدأ أو علاقة آثمة تنسج خيوطها. ما زلنا في أوطاننا العربية لا نقنع بتلك الصداقة التي يمكن أن تجمع بين رجل وامرأة بعيدًا عن حبائل الشيطان حتى لو كنا وسط العشرات ودون شبهة خلوة.. ويزيد من هذا الواقع قبح الممارسة وتبييت النوايا السريرية عند الرجال.. فقد يلتقي أحدهم زميلته ليحدثها عن ضرورة الحجاب والتزام الأخلاق ثم يعود لبيته يتخيلها رفيقة فراشه ليمارس معها عاداته السرية.. صرنا مجتمعات منافقة تقول ما لا تعمل وتفعل كل ما تنهى عنه.. تسب الغرب المنحل وتتمنى في الوقت ذاته أن تتاح لها فرصة لتجربة كل

مكتبة عابث الإلكترونية

قبائحه شريطة أن تكون في السر.. لا فضل لنا على الغرب حين نمتنع عن قبائحه فقط لأننا لا نستطيع ممارستها في العلن.. الفضيلة الحق أن نترك ما نستطيع فعله لو أردنا.. لا أن نتنزه عما لا قدرة لنا عليه أصلاً.

– حسنًا علياء.. أرجو أن يكون الأمر الذي يشغلك وطلبتِ رأيي فيه أمرًا رحيمًا.

– حقيقة يا عاصم لا أدري كيف يمكن أن أخبرك وما زلت مذهولة من قدرتي على أن أطلب لقاءك خارج نطاق العمل! هل تعرف يا عاصم؟ أنا لم ألتقِ إطلاقًا رجلاً بمثل هذا الشكل.. عندما كنت في الجامعة كنت لا أقبل بأي تعامل مع أصدقائي خارج أسوار الجامعة.. والأمر نفسه في العمل.. ولكن شعرت نحوك بارتياح كبير وثقة لا أدري مصدرها.

– صدقيني علياء ليست القضية أن نثق بالآخرين ولكن أن نثق نحن بأنفسنا.. فنحن محرومون من تفعيل إنسانيتنا وننتظر أن يشير لنا الآخرون إلى مخبأ ضمائرنا.. يجب أن نثق بأنفسنا سواء أكنا في المسجد أم في الحانة؛ لأن الطهر والنقاء لا تمنحهما الأماكن ولا الناس إنما يكمنان بداخلنا.. لو امتلكنا النقاء ووثقنا بأنفسنا

مكتبة عابث الإلكترونية

سنصنع كل ما كنا نحسبه بعيد المنال.. ليست الميزة أن نحصل على أفراد صادقين مخلصين.. لكن الميزة والفخر أن نفعِّل ضمائرنا ونصنع من الخبث الصدق ومن الأشرار أخيارًا.. أن نحيل الخرائب إلى بساتين ونجعل من الأعداء أصدقاء مخلصين.. أن نعتصر من الهزيمة نصرًا وأن نخرج من الخيبة بإرادة وعزيمة.. هذا هو الفخر الحقيقي.. ليس في تجنب الناس راحة وإنما في جعلهم حقولاً آمنة.. الحرية في وسط المجتمع والناس وليس في التعري في غرفة مغلقة ولا الغناء في حمام حتى لا يكتشف الآخرون سعادتنا.. الأروع أن نكون واثقين أنه لا فارق بين لقاء زميل داخل سور الجامعة أو خارجه ما دام كل منا يثق بنفسه والآخر.. أما إذا افتقدنا الثقة والأمان فلن يجدينا وضع ألف سورٍ حولنا؛ لأن شظايا الآخرين ستصيبنا حتى ونحن مختبئون في ذواتنا.

– يعجبني منطقك وأسلوبك الراقي في التفكير.. وهذا ما شجعني على لقائك واستشارتك.. يوجد طبيب زميل لاحظت أنه يتقرب مني منذ فترة.. حتى إنه جاءني بهدية في يوم ميلادي الذي لا أدري من أين عرفه.

– الأمر بسيط! فإن هدية في مناسبة لا تعني كونها أكثر من

مكتبة عابث الإلكترونية

هدية.

- ربما.. لكن للأنثى قدرة على استشعار ما يـدور في صـدور الرجال من حولها ومعرفة رسائل عيونهم وفك أسـرارهم مـن نـبرة صوتـهم حتى حين إلقاء تحية في صباح.

فابتسمت وقلت لها:

- قضيتي أنني لم أجرب شعور الأنثى من قبل.. لكـني أثـق أن النساء لديهن أدوات محروم منها جنس الرجال.. على أي حـال ما قضية هذا الرجل؟

- لقد حدثني منذ يومين في رغبته في الارتبـاط بـي والتقـدم لخطبتي.

- جيد.. إن كنت ترين أنه مناسب فما القضية؟

- ليست المشكلة أن يكون مناسبًا.. وهو كذلك بالفعل.. لكن المهم أن أكون أنا راغبة به.. فإنني لست مؤمنة بأن تكون المرأة بابًـا موصدًا يفتح لأول طارق لمجرد أن يده طرقت بشكل جيد.

- يناسبني هذا النهج وأوافق عليه.. العلاقة لا بد أن تكـون جملة بفاعلين وليس فاعلاً ومفعولاً. لا بد مـن مـشاركة الرغبـة وأن

مكتبة عابث الإلكترونية

يتحرك الطرفان بالقوة نفسها.. كلاهما يجب أن يكون فعلاً.. ففي العلاقة بين رجل وامرأة تسقط نظريات نيوتن ولا معنى للفعل ورد الفعل.. لتخبريه إذًا أنك غير مستعدة للارتباط.. الأمر بسيط.

ابتسمت قائلة:

– يا عزيزي.. في مجتمعنا يعتبرون أن امرأة ترفض صفقة رجلٍ مناسب إما غبية وإما أن لديها سرًّا.. أمي تشجعني على قبوله وتنزعج من كثرة رفضي لكل من يتقدم لي.

– لا بأس ببعض الانزعاج.. فلا يمكن أن نغامر بفقد قلوبنا حتى لا نسبب إزعاجًا لأحدهم! ليكن لكِ شجاعة في مواجهة الأمر ولا تعيري الآخرين انتباهك.. ألم أقل لكِ لا بد أن نثق بأنفسنا؟ ودليل الثقة أن نؤمن باختيارنا وأن نحترم قناعاتنا فعلاً وليس قولاً فقط.

انتهى لقاؤنا الذي تكرر بعد ذلك مراتٍ عديدة.. أما في المشفى فكنا نتجاهل بعضنا بعضًا. إن الخوف مزروعٌ بداخلنا ويد المجتمع قوية ظاهرة حتى على أولئك الذين يزعمون أن لهم نهجهم. خضعنا لتقاليد المجتمع ولم يعد ممكنًا أن نتلاقى علنًا في

مكتبة عابث الإلكترونية

العمل بعدما شعرنا أن في صدورنا ميلاً لبعضنا.

ولم يمضِ شهران بعد لقائنا الأول حتى صارحتني علياء بحبها واعترفتُ لها بأنني أبادلها الحب. لم تكن لديَّ الشجاعة الكافية لأختبر صدق شعوري.. ولم أستطع أن أفرق - وأنا ابن الثالثة والعشرين في ذاك الوقت - بين الاقتناع والعشق.. فالحب في حياتنا كالزواج نمارسه بطريقة أخبرونا أنها الوحيدة المناسبة.. لا نفرق بين المودة والعشق.. بين التعود والارتباط!

هكذا كان حالي مع علياء على مدار سبع سنوات.. تعود بطعم الحب! دائمًا ما كانت تبهرني بقراءة أفكاري وتأسرني بتفانيها في إرضائي.. لم تستطِع أن تعرف أهم ما يميز العاشقين العقلاء.. وهو أننا لا نحتاج إلى دائرة تحتوينا ولا إلى نسخة أخرى منا! لماذا لا نكون دوائر بينها تماس ولكنها تبقى مستقلة؟ لماذا لا يكون لكل من المحبين عالمه المستقل وشخصه المنفرد الذي يعشقنا به؟ التلاشي والتماهي يسحقان الحب سحقًا فنصير أنانيين نحب أنفسنا ونظن أننا نحب من يرتبط بنا.. نحب أنه يلبي رغباتنا ويشبع توقعاتنا ويحقق فينا تصور التسيد والتملك. أنا لم أكن أريد

مكتبة عابث الإلكترونية

جارية تطيعني فقط.. بـل كنـت أريـد عاشـقة أعـشقها وأحتـاج لأن أمنحها حبي أكثر من حاجتي لأن تمنحني حبها.

علياء كانت ككل عاشـقات الـشرق.. لا تتحـرك إلا في الظـل وتعجز عن اتخاذ القرار.. كـل دورهـا منحـصر في تـدعيم قـراري.. لذلك كان عليها أن تتقبل قراري الأخير بعـد سـبع سـنوات.. قـرار الرحيل والإقلاع النهائي عن مطارهـا الـدافئ لأحلِّـق بعيـدًا في آفـاق باردة يغطيها الضباب.. آفاق لها مذاق سارة التي صنعت حـبي لهـا عن بُعد وأطلقت أسراب الهوى بصدري وأطارت بكـل أغطيـة الليـل فلم يبقَ لي إلا أن أسهر بها ولها. هكذا دار شـريط علاقـتي بعليـاء تذكرت فيه علاقة امتدت لسنوات طوال.

بعد جدال طويل مع مدير المشفى قدم لي اقتراحًا مناسبًا بأن يمنحني إجازة مفتوحة لحين انتهائي من دراسة الماجـستير ولـيس اسـتقالة نهائيـة. ناسـبني عرضـه وحرصـت أن أنتهـي سـريعًا مـن الإجراءات حتى لا أصطدم بوجود علياء ولا أضـطر لممارسـة طقـوس الكذب أمام سيل أسـئلتها عـن سـر تغـيري معهـا.. تـرهقني دائمًـا أسئلتها اللانهائية وغيرتها المرهقة من كل من حولي.. لم تطـالبني

مكتبة عابث الإلكترونية

يومًا بالزواج أو وضع حد لعلاقتنا.. كانت دائمًا تقول لي دعني أحبك فحسب وبالمقابل إن لم أملأ عليك قلبك فلا تملأه بغيري.. لا تشعرني بالفشل في اختياري الوحيد.. كلماتها كانت تقطع عليَّ السبيل دائمًا لإنهاء الأمر.

أصبح يومي بعد ذلك مكررًا روتينيًا بين القراءة والمقهى وأحيانًا دراسة الماجستير الذي كنت أعلم يقينًا أنه كان هروبًا وانسحابًا أكثر منه مشروع علم ودراسة. وفي لقاءاتي محمد اليماني كنت أتحاشى التحدث عن سارة لأنني أعلم مقدمًا موقفه من الأمر.. ولم أفاتحه فيما طلبته منه من إنهاء موضوع علياء نيابة عني.. كنت أثق دائمًا بحكمته وإخلاصه.. على الرغم من أنه يكبرني بخمس سنين فقط لكن كنت أستشعر في آرائه الأمان والثقة.

ذهبت لمقابلة محمد بالمقهى.. وصلت قبله واخترت طاولة تقع في ركن منفرد حتى لا يشاركني أحد أو يطلب أن ألعب الشطرنج معه.. فلم أكن بحالة مزاجية تسمح بهذا.

جاء "أسامة" النادل ليضع لي النرجيلة التي أصبحت أدخنها بشراهة.. كان أسامة لا يروقني بعينيه الباردتين

مكتبة عابث الإلكترونية

وابتسامته الصفراء التي كانت استجداءً لمنح البقشيش وهو يرحب بي وينهال بالمديح على كرمي وأنني زبونه المفضل.. كنت أعرف جيدًا أنه يكرر الكلام نفسه على كل من يقوم بخدمته.. لكن علينا أن نبتلع الطُعم بإرادتنا ونستحسن صوت النفاق المزعج.. هكذا علمتنا الحياة في مصر.. نصفنا ظالم والنصف الآخر منافق!

أسامة كان حاصلاً على ماجستير في الجغرافيا.. ومع ذلك لم يجد عملاً إلا أن يكون نادلاً في مقهى.. كنت أشعر بنظرة الحقد في عينيه على الجميع وكأنه يحمِّلنا نتيجة إخفاقه.. كثيرًا ما نصحته بأن يواصل دراسته ليحصل على فرصته ذات يوم لكنه كان جائعًا للمال.. وبعد عدة أحاديث معه علمت أنه فارغ من الثقافة وأنه حصل على الماجستير عن طريق ذله لأستاذه بالجامعة فكان طالبًا قبل الظهر وخادمًا بعده.. يقوم بكل ما يكلفه به الأستاذ الذي يتابع بحثه.. حتى إن زوجة الأستاذ كانت تتصل به ليرسل أسامة يشتري لها لوازم البيت! أي علم وأي شهادات تلك التي يحصل عليها طلبة الدراسات؟! أصبح الطريق الوحيد للحصول على هذه الشهادة إما أن تكون ابنًا لأحد أساتذة الجامعة وإما أن تكون خادمًا لزوجته.. فهل ستنهض أمتنا ذات يوم؟ وهل سيتغير حالنا من أمة

مكتبة عابث الإلكترونية

أصبحت عالة على الأمم حتى أصبحنا نستورد سجادة الصلاة من الصين وفانوس رمضان الذي كان اختراعًا مصريًّا خالصًا؟ كل شيء أصبح مطبوعًا بتلك الجملة المقيتة "صُنع في الصين": الملابس.. الأجهزة.. لعب الأطفال.. حتى أصبحت أعتقد أننا عندما نتزوج سنكتشف مطبوعًا على أقفاء زوجاتنا: "صُنع في الصين".. فهذا زمن السلع المزيفة والإفلاس الوطني.

لا أدري لماذا تأخر محمد.. محمد كان أرملاً بعد وفاة زوجته التي تركت له ابنتهما الوحيدة.. وكان يكرس حياته لرعايتها ورفض الزواج حتى لا يأتيها بزوجة أب تمارس عليها القهر.. معللاً موقفه بأنه تربى يتيمًا وذاق الويل على يد زوجة أبيه التي كانت تحرص على إذلاله.. مما صنع منه رجلاً متحملاً للصعاب. جاهد في الحياة حتى حصل على الليسانس من كلية الألسن قسم اللغة الإنجليزية.. لكنه اختار أن يعمل بالتجارة حتى صارت له سلسلة من محلات العطور الشهيرة باسم "عطور اليماني". وبعد فترة قال لي:

- لماذا لم تسألني عن أمر علياء أو ماذا صنعت معها؟

مكتبة عابث الإلكترونية

فقلت له:

- لأنني أحترم رؤيتك للأمر وأثق أنـك سـتفعلها في الوقـت المناسب.

- على أي حال اعتبر الأمر قد انتهى بالفعل.. فقد قابلتهـا أكثر من مرة خلال الأسبوع الذي تغيبت فيه عن المقهى.

- كيف تم الأمر يا محمد؟

قال متأثرًا برقة وحزم غامرين:

- أخبرتها عن رغبتك في منحها فرصة أفضل وأنـك تعـاني ارتباكًا في تحديد أولوياتك ولا ترغب في أن تجعلها رهنًـا لظروفـك. فقالت: يمنحني فرصة؟! عن أي فرصة تحـدثني أسـتاذ محمـد؟ إن علاقتنا لم تكن صفقة قابلة للـربح والخـسارة.. لقـد كانـت عهـدًا لا يقطعه إلا الموت.. ثم ما ظروفه التي ستجعلني أغير رأيي بعد سـبع سنوات لم أسأله فيها يومًـا مـاذا ينـوي أن يفعـل؟ لا تعتـذر نيابـة عنه.. كنت أعرف أن هذه نهايتي المحتومة على يـده.. كنـت أرى ارتباكه دائمًا في كل مرة أمنحه فيها حبي كمـن يـشفق علـى مـصير شخص يعلم أن نهايته هي الهلاك.. وكنت أختزن دموعي وأجمعها

مكتبة عابث الإلكترونية

ليوم سيطول فيه سكب الدموع.. لقد أحببت عاصم في وقت لم يكن مؤهلاً فيه للحب وكنت أنا ممتلئة بحبي وشوقي.. دائمًا هي الحياة معي لا تأتي إلا في التوقيت السيئ والموقف غير المناسب. ثم بكت حد الانهيار وأنا عاجزٌ أمام دموعها وأنا أرى روحًا تتبخر وأحلاما تتلاشى وآمالاً سقطت صريعة لقرارك يا عاصم. حقًّا لقد ندمت على قيامي بدور المقصلة بينكما ولست أدري أيكما أفدح خسارة: أنت أم هي! لكن يقيني أنك فقدت قلبًا أحبك بكل ما يملك وكل ما يستطيع.

أطرقت ممتلئًا بحزني:

– فداؤك نفسي يا علياء! لكن لا يمكن أن أستمر معها من دون شعور صادق! أقسم لك لو طلبت حياتي لما تأخرت عنها.. ولو كان الأمر بيدي لمنحتها قلبي ولكن لسنا نحن من نحرك أقدارنا.. ولا تدق طبول القلوب بعصي إرادتنا.. وإنما يمسك بها كف القضاء فيمنح قلبًا لمن لا يستحق.. نعشق من لم يشعروا بنا يومًا ونرفض من يحيون لأجلنا! ألم أقل لك إنها تصاريف القضاء وعلينا أن ننتظر حتى ينزل الستار عن الليلة الأخيرة لنهايات مفتوحة لم نكتب نحن قصتها.. أشكرك يا محمد فقد أرحت ضميري من عذاب

مكتبة عابث الإلكترونية

طالما أرَّقني.. وأقسم لك ليس لسارة علاقة بالأمر.. فلست من هـؤلاء الذين يتركون قلبًا من أجل قلب آخـر وحبًّـا مـن أجـل حـب آخـر.. هؤلاء تجار نخاسة.. إنما أنـا حقًّـا لم أشـعر صـدق الحـب في قلـبي يومًا.. وكم حاولت وبذلت من جهد.. لكنهـا إرادة الله فكـم نـصطدم بأشياء في توقيـت سـيئ ربمـا لـو صـادفناها في وقـت آخـر لـتغيرت حياتنا.

فتبسم قائلاً:

- وهي أيضًا ترى أنك كنت التوقيت السيئ بالنسبة لها.

ها أنا تخليت عن كل ما كان لي يا سارة وأفرغت قلـبي عـن كل ما يشغلني عنك لأبدأ السير في طريق مجهول ولـست أدري هـل سألقاك في نهايته أم أنني سأصطدم بحقيقة ترعبني وأجـد نفـسي في النهاية كثور الساقية أسير في دائـرة بعـين عميـاء أبـدأ مـن حيـث انتهيت وأنتهي من حيث بـدأت.. هـل سـتبدأ قـصتي معـكِ؟ وهـل ستتحركين في اتجاهي كمـا تحركـت أنـا إليـك بكـل يقـيني؟ لتـأتِ الأيام بكل ما لديها فأنا مستعد لاحتمال قضائي ولتكن مشيئة الله.

مكتبة عابث الإلكترونية

مكتبة عابث الإلكترونية

الفصل الثالث

قررت أن أرسل مجموعة من القصص القصيرة إلى عدد من الجرائد ليس منها جريدة سارة.. كنت أشعر أنني أعاقبها بإرسال كتاباتي إلى غيرها.. لم تكن العلاقة قائمة بيني وبين جريدتها ولكن كانت علاقة بيننا.. والجريدة والقصص مجرد وسيط.. فلما تأخر اتصالها الذي انتظرته شهورًا مرت بخطى بطيئة تطحن بقايا صبري بقسوة.. قررت أن يكون لي رد.. وخير رد كان إرسال كتاباتي إلى الآخرين.. وبالفعل وافقت إحدى الجرائد أن تنشر لي

مكتبة عابث الإلكترونية

ثلاث قصص تباعًا. وقد حققت الجريدة الأخيرة مبيعات عالية بفضل قصصي.. وطلب مني رئيس التحرير أن ينشر لي بعد ذلك أربع قصص شهريًّا بواقع قصة كل أسبوع.. وافقت على عرضه الذي كان مشفوعًا بمقابل مادي مجزٍ.

وبعد نشر القصص الثلاث الأولى وفي صباح يوم السبت جاءني اتصال هاتفي.. وكان على الجانب الآخر صوتها.. أخيرًا جاء صوتها:

– أهلا عاصم.. كيف حالك؟

– ما زلت أتنفس.

فضحكت:

– ولماذا تتنفس بعيدًا عنَّا؟ هل جو جريدتنا لم يعجبك؟

– أنتم من حجب عن صدري الهواء يا سارة!

– لماذا تقول ذلك؟ فقد نشرنا لك.. وحازت قصصك نجاحًا كبيرًا ظننت أنه كفيل بأن يستمر العمل بيننا.. لماذا لم تبعث لنا بمزيد من قصصك أو تتصل لننظم الأمر سويًّا؟

– ولكن ما لم تخُنِّي ذاكرتي أظن أنكِ طلبتِ هاتفي.. وكان

مكتبة عابث الإلكترونية

من المفترض أن تتصلوا بي إذا كان يعنيكم أمري.

- أوه سيد عاصم أنت حساس جدًّا! أنت تعرف حجم المشاغل في الجريدة وكثرة المادة التي تُنشر.. لكن هذا لا يعني أننا أسقطناك من حسابنا.. كانت مسألة وقت فقط.. وقد حزنت أنك اخترت النشر في جريدة أخرى على الرغم من أنني استمتعت شخصيًّا بقراءة قصصك بها. وقد جعلتني أزيد مبيعات جريدة منافسة وأنا أنصح أصدقائي بشرائها لمتابعة مجموعتك.. لو يعلم مدير التحرير لفصلني بتهمة الخيانة العظمى.

ثم ضحكت:

- دعنا نتخذ خطوات عملية.. متى تستطيع أن تحضر للجريدة لننسق سويًّا؟ ما رأيك لو حضرت غدًا في الرابعة عصرًا.. هل يناسبك؟

قلت:

- يناسبني.. سأحضر إن شاء الله.

- لا تنسَ أن تُحضر معك بعض أعمالك.

انتهت المكالمة وقد شعرت أنني نجحت في إثارة غيرتها ولو

مكتبة عابث الإلكترونية

من جريدة.. فإن المرأة كائن موجود للغيرة.. فهي تغار حتى على من لا يمثل لها شيئًا.. فبمجرد أن تمر يومًا بطريقها يزعجها أن تسلك طريقًا آخر.. يجب أن تزيلك هي بإرادتها لا أن تزول بإرادتك أنت أو لأن آخر دعاك إليه.. وقد وعيت هذا الدرس جيدًا وقررت أنه إذا كان لا بد من انتهاء قصتي معها فلن يكون هذا بقرار منها.. لن أسمح لها بأن تهزم كل مشاريعي.

غلبني شعور بالتحدي أكثر من شعور شوقي إليها.. وكأني في ماراثون أو أقارعها على رقعة شطرنج لا بد أن أنتصر فيها أو فليمت الملك مختنقًا. ستتغير قواعد اللعبة بيننا يا سارة! فإن امرأة تغار على جريدتها تمكن إغارتها على قلبها. لن يكون لقائي بك هذه المرة في اتجاه أحادي بل ستكون اتجاهات متعاكسة. لم تعودي وحدك تمسكين الأوراق كلها.. سأشاركك في تحديد مصير قلبي! يجب أن تفتحي الباب وتنتظري حضوري.. لن أطرق بابًا تجهلين مَن خلفه فقد انتهى وقت الأبواب المغلقة! سأحملك على الاعتراف بوجودي أو لن يكون لي وجود على خارطتك.. لن أكون رجلاً يعيش على هامش وجودك.. كيف لك أن ترتضي لي هذا الوضع المهين لحب بقدر حبي؟ حتى لو لم يكن لكِ به علم.. فتلك قضيتك!

مكتبة عابث الإلكترونية

يقولون إن المرأة تستطيع أن تعرف كل من أحبوها حتى لـو كـانوا في آخر العالم.. فلماذا لم تعرفيني وأنا على بُعد لقاء منك؟

مرت ليلتي وأنا أحمل ثقتي بنفسي.. لكن مـا إن وصـلت إلى الجريدة وتنفست الهواء الـذي يمـر بـصدرها ومـشيت علـى الأرض ذاتها التي تمر بها كـل يـوم.. حتـى شـعرت أن كـل قراراتـي يـتم محوها قرارًا تلـو الآخـر! أي امـرأة تلـك الـتي تـسحقني عـن بُعـد وتشتت كل حشودي دون أن تطلق نحوي رصاصة واحدة!

وصلت مكتبهـا في تمـام الرابعـة.. فـأخبرتني سـكرتيرتها أنها بانتظاري.. وما إن وصلت إليها حتى قابلتني بابتسامة عتاب:

– أهلاً بكاتبنا الذي يريد أن يهرب منَّا.

– صدقيني لا أجد مهربًا منك إلا إليك.. بعـض اللقـاءات لا نحصل عليها إلا بالهروب منها.. وكثير من الأمنيات لا تتحقـق إلا بإسقاطها من حساباتنا.

– وهل أسقطتنا من حساباتك سيد عاصم؟

– أسقطتكم لأحصل عليكِ.. أقصد على جريدتك.

ابتسمت قائلة:

مكتبة عابث الإلكترونية

– أخاف أنـا مـن الرجـال الـذين يجعلـون القلـم مهنـتهم! مربكون دائمًا يتحدثون بكلمات لها ألف معنى.

– هذا جيد لأنه سيمنحك حق تحديد المعاني.

– أخاف أن أفهم المعنى الذي لم تقصده.

– اختاري المعنى الذي يناسبك.. وسأجعل منـه اختيـاري.. فأنا أجيد ممارسة كل المعاني.

– حـسنًا! سـأعتبر أنـك تغـازلني وتغـريني بمـساحات مفتوحة.

– معكِ لا أستطيع ترسيم حدود ثابتة.. ففي البحر لا توجد أسوار.. دعي الموج يحدد لنا لقاءً خارج جريدتك.. هـل يزعجـك أن أدعوك لعشاء نناقش فيه أعمالي؟

– أوافق إذا كنت ستعتبره عشاء عمل.

– هو كذلك.. فأنت مشروع عمل معطل منذ ثلاث سنوات.

– لكن أنا لم أعرفك إلا منذ بضعة أشهر!

– لكني أعرفك منذ ثلاث سنوات.

– هذا يدعوني للغرور أن يهتم بي مبدعٌ مثلك.. هل تعجبك

مكتبة عابث الإلكترونية

كتاباتي أم ردودي علي القراء؟

قلت:

- بل أنت من تعجبينني.. وكل شيء منك يحمل مكانتك في نفسي.

هربت بعينيها في سقف الغرفة وأخذت تعيد ترتيب أوراق على مكتبها لم تكن تحتاج إلى ترتيب.. وسحبت خصلة من شعرها عبثت بها بشيء من التوتر ثم رفعت عينيها يعلوها شيء كثير من التردد:

- في أي مكان ستصحبني إذًا؟

- أي مكان سيجمعنا سيكون المكان الأروع ولا شك.. دعينا نحدد هذا لاحقًا.. المهم أننا اتفقنا على لقاء.

- حسنًا اتصل بي غدًا لنحدد موعدًا.. هذا رقم هاتف المنزل.. أوجد به عادة بعد الحادية عشرة ليلاً.

انتهى اللقاء بيننا وأنا محمل بوعد ورقم هاتف.. يبدو أن أقداري بدأت تبتسم أخيرًا.. حان لك أن تخلعي قيد الدهشة من يدي لتمنحيني بدلاً منه قفاز الرجاء.. فقد أجهض الانتظار أجنَّة

مكتبة عابث الإلكترونية

الأمل.. امنحيني حبًّا جديدًا له سحر عينيك ودفء شفتيكِ وجنون قلمي.. مسئولة أنت عن كل آلامي! قومي بدور الطبيب نيابة عني وقومي بترميم جرحي بك.

رجعت سعيدًا وأنا أكثر ثقة بقضائي.. وفي الثانية عشرة قررت أن أتصل.. على الرغم من أن موعد اتصالي كان غدًا.. لكن لم يعد الوقت مناسبًا للانتظار أو احترام المواعيد المحددة سلفًا.. فاتصلت بها وحلَّ صوتها بكل كياني.. قلت:

- معك عاصم.

قالت:

- خشيت أن تفي بوعدك وتنتظر حتى غدٍ!

- خلف المواعيد أحيانًا يمثل قمة الوفاء.. احتجت أن أسمع صوتك فتآمرت على ساعات الغد لأمنح اليوم حقه في الوجود.

- هل تعرف أن لصوتك في الهاتف نكهة مختلفة؟

- وما الفارق يا سارة؟

- لأن عينيك مزعجتان جدًّا تطاردان من تنظران إليه فيغفل عن نبرتك.

مكتبة عابث الإلكترونية

- وهل طاردتك عيناي؟

ردت بثقة:

- أنا لم أسلبك شيئًا لتطاردني بعينيك.

- بل سلبتني هدوئي لثلاث سنوات وأنا أتردد على ما يجود به قلمك! كنت أراك في مرآة بحجم جريدة وأطالع وجهك في مدونتك.. خواطرك مذهلة يا سارة!

- إن كان هذا رأيك فعلاً فأنا سعيدة أن يشيد بقلمي أديب مثلك.

- ما رأيك لو التقيتك الليلة بدلاً من غدٍ؟

- لكن أليس الوقت متأخرًا يا عزيزي؟

- هو متأخرٌ جدًّا بالنسبة لطول انتظاري له.. أين تسكنين؟

- الزمالك.

- حسنًا.. ما أقرب مطعم لكِ؟

- مطعم "الزهرة البرية".

- حسنًا سأحضر إليك بعد ساعة من الآن.

مكتبة عابث الإلكترونية

أغلقت الهاتف ليعود الصمت من حولي.. لكنه صمت ممتلئ بضجيج من المشاعر المتلاحقة.. وأصوات أبواق الشوق لا تكف عن إطلاق صيحات السعادة!

"الزهرة البرية".. هناك سيكون لقاؤنا.. ما أروع هذا الاسم! يشبهك جدًّا يا سارة.. فأنتِ زهرتي التي نبتت دون أن أغرسها بيدي وسقتها أمطار القضاء ليأسرني عبقك.. شهية أنت ككل الكائنات البرية.. مبعثر أنا في وجودك وغيابك.

ارتديت ملابسي وأخذت سيارتي في تمام الواحدة.. كانت تجلس على طاولة في زاوية.. جسدها النحيل كشمعة تشتعل وتشعلني.. وخصلاتها تغطي عنقها الطويل كبرج لبنان القديم حين ينزل عليه الليل الشرقي حاملاً أسرار العشق العربي.. جسدٌ قديس لكنه صارخ بجنون الشهوة السرية والعطر السرّي. تقدمت إليها مصافحًا يدها بيد دافئة تخبئ لهفتي ولوعتي وكل عذاباتي بها.. بعد دقائق حضر النادل.. سألتها:

- أي نوع تفضلين من الأطعمة؟

- سآكل على ذوقك.

مكتبة عابث الإلكترونية

كدت أقول فلتأكليني أنا إذًا! فأنا طعام ينضج لأجلك منذ سنوات ثلاث! لكن وجود النادل يزعج حميميتي معها.. فطلبت "سلطة فواكه".. راقبتها وهي تأكل.. كانت كفراشة تقتات من فم الزهور كأنها تخشى أن تؤلم الطعام بين شفتيها.

– قل لي ماذا تنتوي أن تفعل.. فأنا معي تفويض من رئيس التحرير لأتفق معك على عقد عمل ننشر لك كل ما تكتب سواء قصص أو مقالات؟

– أوافق شريطة أن يجمعني عشاء بكِ عند كل موضوع تنشرونه.

– إذًا ستنفق كل أجرك من الكتابة على المطاعم.

– مستعد لأن أدفع فاتورة لقائك من دمي.

فاعتدلت وتكلمت بصوت خفيض:

– أنت جريء جدًّا يا عاصم.. تقفز سريعًا على الأسوار كلها.. تمهل.. أنت لا تعرف عني شيئًا ولا عن حياتي! أنت لا تعرف كم عمري.. ولا تعرف إذا كنت متزوجة أم لا.. ولا تصل معلوماتك لأكثر من حدود قلمي.. فلماذا تحاصرني بكل هذا

مكتبة عابث الإلكترونية

الشعور؟ صدقني أنا معجبة بك جدًّا ولا أريد أن أسبب لـك جرحًـا. أنا أشعر بك من أول لقاء بيننا.. ومنذ أن صـافحتني وضـغطت علـى يدي سرت في جسدي رسالة منك أخبرتني أنك جئت لأجلي ولـيس لأجل مجموعتك القصـصية.. لا أنـصحك بهـذا.. فأنـا امـرأة خـارج نطاق الحب.. أنا قصة مطبوعة لا يمكنك أكثر مـن قراءتهـا وإضـافة بعض الهوامش عليها.. أما القصة ذاتها فقد تمت وانتهت.

– تتحدثين عن قصتك.. فماذا عن قصتي أنا؟ أنـا لا يعنـيني ما كتب الآخرون ولا أهتم لنهاية محددة سلفًا! دعينا تحت الـسماء نسِر بغـير جـدران تحـبس حـق الحلـم ولا أسـوار تحتكـر مـساحة الشعور!

– ما حكايتك يا عاصم؟

– أنتِ حكايتي! سارة.. سأكون معك أكثر من جريء.. هـل تعـرفين أنـني لم أهـتم يومًـا بنـشر أعمـالي.. ولم أرسـل قصـصي لجريدتك بل أرسلتها لكِ أنت.. وكنت أقبِّل كل صفحة لتحمـل لـكِ أنفاسي وتودعها على خد أناملك؟ مجنون أنا بك منذ عرفتك.. منـذ قرأت سطورك الأولى وسرى قلمك بدمي يغزو كـل خلايـا وجـودي..

مكتبة عابث الإلكترونية

أنت قضاء مفروض عليَّ ولم أقم باختياره.. قد يكون كلامي هذيانًا بالنسبة لكِ.. لكن من له حق محاسبة المجنون على جنونه؟ ومن يمنع العصفور من حق الطيران تحت المطر؟ لا أحد يستطيع مطالبته بأن يلتزم عشه! قد طار بي حبك وأعلم أنه سيهلكني.. لكن هذا مصيري وحدي فدعيني أمُت على شفا جنوني بك! أنا أحبك! نعم أحبك.

ثم نهضت من كرسيي كما ينهض الإعصار بعدما ألقى بكل حموله وهي ذاهلة.. تسبح عيناها في ملامحي كأنما تستدعي كل ذكرياتها على وجهي.. ترتعش شفتاها المكتنزتان كحبتي كرز.. تبعثرت كلماتها في عباءة من الصمت المضطرب.. كفَّاها كملاكين صغيرين على سطح الطاولة.. كأنما أصابعها خمسة أجنحة دقيقة كادت تطير من ضربة المفاجأة.. تمنيت لو قبَّلت أصابعها.. لكن بأيها سأبدأ: بسبابتها التي يحاصرها خاتم دقيق مثلها أم بخنصرها المشاغب؟ رفعت رأسها ترقب وقوفي أمامها كحقيقة تحاصر وجودها.. عيناها تقولان اجلس لا ترحل! ورعشتها تقول دعني قبل أن أتلاشى أمامك شظايا امرأة شرَّقت بحقيقة حب لم تتوقعه.. صافحتها فشعرت بصهيل الدماء في عروقها كأنه يضج..

مكتبة عابث الإلكترونية

يريد أن يضرب سطح الجلد ليختبئ بداخلي.. وقبل أن تتكلم قلت لها:

- لا داعي لأن تردي من فضلك! دعيني أحتفظ قليلاً بروعة اعترافي الأول أمام عينيكِ! كم انتظرت هذا اليوم.. فلا تحرقي أغصانًا طال انتظارها تحت جنح الشتاء.. دعيها تثمر أخيرًا ولو لليلة واحدة! يمكننا أن نغادر الآن.

انتهى اللقاء وقد أفرغت حملاً ثقيلاً! طالما حلمت بأن ألقي لها أمانتها التي احتبستها في صدري.. حبي من حقك وحدك يا سارة.. فلماذا تعتبين عليَّ أن أرد لك ما هو ملكك وحدك؟ لماذا تجادلينني في قدر كتبتِ أنتِ كل سطوره؟ من يطلب من الذبيح ألا يصرخ من الألم حين يسافر السكين في شرايينه؟

خلوت بنفسي في غرفتي.. بل خلوت بكِ بعد أن امتلكت زمام المبادرة ونجحت هجمتي الأولى.. شعرت بسريان كلماتي إليكِ وسعدت بأنني لم أعد محملاً بشظايا ارتطامي بك. ما أبأس من محب محرومٍ من البوح بحبه.. حين نحبس مشاعرنا ونسجن حبنا نصير أكياسًا ممتلئة بالأنين.. براكين تغطيها عباءة الصخور.. زلزلة صامتة تهدم راحتنا وتسحق هدوءنا.. كل حبيب لا يمتلك

مكتبة عابث الإلكترونية

حق الاعتراف أمام المحبوب يفقد حبه ويصير خطيئة تعذب ضمائرنا وجرحًا نغلق عليه من دون علاج.. لا يطفئ اشتعال النار بذواتنا إلا مصارحة الحبيب.. وها أنا ألقيت إليك بأول دفعة من بركانك الذي زرعته بداخلي يا سارة.. فهل تحتملين حرارته ولو لليلة واحدة؟ فأنا محترق بك منذ سنين! حان دورك لتشاركيني فيما زرعت يمينك ولتنظري أي نوع من الحصاد سيثمر.. هل سيكون الحصاد المر أم الحصاد السعيد؟! شاركيني الليلة حلمي يا ملائكة الليل.. أطلقوا مصابيح الأمل لتنير مسائي.. يا أبالسة المساء ارحلوا الليلة عن غرفتي ولا تزعجوا حلمي الجميل.. ولتشتعل قناديل السماء بتوهج أكبر.. ولتنطلق الألعاب النارية من شهب النجوم لتعلن عن فرحتي! ارقص أيها النسيم على وجهي فإنني سأمنحك الليلة حق النوافذ المشرعة ولن تحول بيني وبينك سدود.. اقتربي أيتها السعادة على خطى الأمل الجميل.. قف أيها القدر بجانبي أرجوك ولا تُحِل فرحتنا لمأتم ولا تقلب زغاريد الأماني إلى نواح الخيبة! شاركني أيها الكون ليلتي وليأتِ الصباح بما شاء.

أما أنتِ يا سارة فاسهري الليلة لأجلي.. كابدي لوعة القلق ولتساوركِ الظنون من هذا الغريب الذي يعترف لكِ بحب بحجم

مكتبة عابث الإلكترونية

السماء ولم تقضِ معه إلا لقاءات ثلاثة بمقدار سطورك الثلاثة الأولى.. كل سطر بلقاء وكل لقاء بحياة! انشغلي بأمري.. فكم ليلة قضيتها مشغولاً بك.. فكري من أكون.. وماذا أحمل لأجلك في حقيبة أسراري.. ثم امنحيني حبًّا بقدر عشقي.. ازرعي خرائب حياتي ببساتين آمال جديدة.. أعيدي بناء ما هدم شوقي لكِ.. امنحيني نفسك امرأةٍ على مقاس رجل له ألف طريقة في صنع الحياة.. أقبل أيها الليل علينا ودثرنا بعباءة الظلام الوديع.. أخفِ سر حبنا عن عيونهم حتى لا يجتثوا براعم الرجاء قبل أن تزهر أوراق السعادة.

ونمت كأجمل ليلة مرت بحياتي.. لم تمر الأحلام بخاطري لأنني أخيرًا عايشت حلمي.. وانطلقت خيول الصباح حاملة أشعة الشمس لوجهي فأيقظتني بدلال عاشقة.. نهضت من فراشي كعاشق قضى ليلته الأولى مع حبيبته.. ورأيت أمي سعيدة مبتسمة فابتهجت لترادف حالنا.. قلت لها:

– ما يضحكك أمي الحبيبة؟

– اتصل بي أخوك أحمد يخبرني أنه سيحضر من الخليج غدًا.

مكتبة عابث الإلكترونية

– حقًّا يا أمي؟ هل أنت واثقة أنه أحمد؟

– نعم يا عاصم! وهل سأغفل عن صوته؟ شوقي لرؤيته يقتلني.. كنت أخاف أن أموت قبل أن أراه!

هل سرت عدوى الشوق في كل البيت وصرنا عائلة مرهونة بحبل الانتظار؟!

– سأذهب لاستقباله.. فأرسلي للخادمة لتنظف البيت جيدًا حتى يليق باستقباله بعد سنوات من الغربة.

– وهل تراني مهملة في البيت؟

فاعتذرت إليها:

– عفوك يا أمي ولكن أعلم أنك متعبة وأردت راحتك فقط.

– بل أنا من سيجهز له كل شيء! الحمد لله يا رب.. الشكر لله أن رد لي ابني.

قديمًا كانوا يقولون إن أحب أبناء الأم لقلبها هو الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى والغائب حتى يعود.. فهنيئًا لك يا أحمد.. فقد استأثرت بنصيب الأسد من قلب أمك. دائمًا ما كنت أستشعر الغيرة من أحمد الذي يستأثر بحب أمي أكثر مني أنا

مكتبة عابث الإلكترونية

وأختي أحلام.. والدي أيضًا كان متيمًا به.. هل لأنه الابن الأكبر أم لأن الزهرة الأولى والشجرة الأولى هي الأحب دائمًا لقلب من غرسها؟ لا بأس.. يكفي أن أكون ببستان ترعاه يد أمي حتى لو كنت زهرة من الدرجة الثانية!

توقعت أن تتصل بي سارة في هذا اليوم.. لكن خاب ظني.. يبدو أنها ستتقن معي لعبة الدلال! وكان في قدوم أحمد بعد سنوات من انقطاع أخباره منذ انتقل من السعودية للعراق فرصة لإلهائي عن سارة.. ولأمارس معها بدوري لعبة تكبر الرجال.

ذهبت للمطار لاستقبال أخي.. ليس من رابطة أقوى من رابطة الحب بين أخوين.. أحمد كان ظهرًا قويًّا يحميني كما كان "فيكتور" يحمي أخاه "باريس" في أسطورة طروادة.. هل سارة هي "هيلانة" التي ستحطم مدينتي المحصنة؟!

أشتاقك جدًّا يا أحمد.. تذكرت عندما كنت أقلده دائمًا في كل ما يفعل.. فكثيرًا ما كنت أرتدي ملابسه.. وأجالس أصحابه عندما يأتون لزيارته.. وأتعمد أن أقيم معهم صداقة.. كان ينهرني على ذلك أحيانًا.. وكثيرًا ما كان يترك لي هذه المساحة.. كنت أتسلل لحجرته لأقتني أحد كتبه وأقرأها سرًّا حتى أشاركه عقله

مكتبة عابث الإلكترونية

كما أشاركه ملابسه.. فقد كان أحمد أكبر مني بخمس سنوات فقط.. وعندما يمازح أحد أصدقائه كنت أنتبه لكلامه لأحفظ ما يقول وأبحث عن أي مناسبة لأردد كلماته مرة أخرى.. ولكن عندما كبرنا اتخذت أنا تيارًا آخر.. فقد أصبحت أكثر تحررًا منه.. أحمد يعشق الأسرة ويقضي معظم وقته بالبيت على عكسي تمامًا.. وأصبح هو نادرًا ما يقرأ شيئًا.. بينما أصبحت القراءة والكتابة أقدس طقوسي اليومية.. كم كان يرشد حماقاتي إلى طريق الصواب في صغرنا.. ويخفي أسراري السيئة عن والدي.. والدي الحبيب.. أين أنت الآن؟ فقد أصبح ابناك رجلين أحدهما اكتوى بلظى الغربة والآخر تشويه نار العشق الغريب.. ليتك كنت هنا فتمسح عن وجه ابنيك ما أهمهما.

أبي كان رجلاً شديد التدين.. يحفظ القرآن ويؤم الناس في الصلاة.. صوته ندي يغسل القلوب من قسوتها.. والأرواح من أدرانها.. كم أشتاق ليدك الحانية يا أبي.. تراني هل كنت سأخبرك بحب سارة.. أم كنت سأخشى أن يدفعك إيمانك القوي لمطالبتي بتركها لأنها فتاة غير ملتزمة بقواعد الدين؟ عفوًا يا أبي.. ما كنت سأستطيع أن أطيعك.. فكثيرًا ما نهرب من الإيمان حين نشعر أنه

مكتبة عابث الإلكترونية

سيقف حائلاً بيننا وبين جنوننا غير المشروع! كنت ستقبل ولا شك بعلياء؛ لأنها ترتدي الحجاب والملابس المحتشمة.. لكن قلبي سافر إلى سارة المتحررة السافرة.. عفوك يا أبتِ في قبرك فليس الأمر بيدي.

أخيرًا وصلت الطائرة.. وأنا أبحث في كل الوجوه عن وجه أعرفه ويعرفني.. طار قلبي عندما استقرت عيناي على وجه أحمد أخيرًا بعد أعوام طويلة من الفراق واللهفة والحيرة لا نعرف فيها هل هو حي أم حواه قبر في بلاد غريبة! هرعت إليه أعانقه بشوقين: شوقي له وشوق حملته أمانة من أمي مختوم بخاتم قلبها الطاهر المعذب.. احتضنني أحمد.. أحاط بيديه من حولي.. ضمني بكل شوقه وحرمانه من وطنه وأهله.. وبكى في صدري طويلاً كطفل تاه في غابة الظلام وأخيرًا عاد لأهله.. ابكِ يا أخي على صدر أخيك.. تراه بكاء شوق هو أم بكاء عناء وعذاب؟ أي مكروه أصابك؟ وبأي سهم قذفتك يد الغربة القاسية؟ هذا صدر أخيك فانهل من دفء الوطن ومارس رقصة البكاء.. ما أعجب أمرك يا مصر.. مهما تحرقنا قسوتك لا نملك إلا أن نبكي بين يديك! أنت الأم الثكلى بأبنائها.. مجروحة بجرحهم.. دامعة عيناك لعذاباتهم.. فلماذا

مكتبة عابث الإلكترونية

تقذفين بهم بعيدًا عنك؟ هل ضاق ترابك عليهم؟ هل نضب نيلك عن سقياهم؟ لماذا هذه القسوة يا أمنا الرحيمة؟ ما الذي حدث بيننا حتى صرنا نهرب بعيدًا عنك إلى أوطان غريبة نتجرع فيها كأس العذاب مترعة بالذل بعيدًا عن دفئك؟ أي كارثة تلك التي تجعل أبناءك يفرون إلى الجحيم بعيدًا عنك؟ من خان الآخر: أنت أم أبناؤك؟ من أين جاءت الضربات القاسية: منك أم من هؤلاء الذين يحبسون أحلامك في صدورنا ويجلدون أمانينا على خشبتك؟ أجانية أنت أم مجني عليك؟ ابكِ يا أحمد واصرخ في صدر الوطن المكلوم.. ابكِ وطنًا صار صغيرًا بعدما كان عملاقًا كبيرًا.. ابكِ أمة صارت ضعيفة بعد قوة وذليلة بعد عزة.. ابكِ فمن البكاء تأتي العزائم ومن الألم يولد الأمل.. ابكِ في وطنك خيرًا من أن تبكي عليه بين يد الغرباء!

عدنا للبيت بين زغاريد أمي وتهنئة الجيران الذين تعودوا أن يشاركونا أطباق الفرحة والحزن.. متقلبون نحن في وطننا بطريقة جنونية.. فجارك الذي يشمت بكارثتك هو نفسه من يبكي لجرحك بحزن صادق.. والذي يغار من فرحتك هو من يزغرد لهنائك.. أهو النفاق.. أم أننا صرنا ننتقم من بعضنا عندما عجزنا عن توجيه

مكتبة عابث الإلكترونية

الغضب لمن يستحق.. أم أننا جبُنًّا عن مواجهة من يسحقون أمانينا فصار الظلم عدوى تنتقل من رأس الهرم إلى قاعدته؟

ضمت أمي أحمد واختلطت دموع الوالدة بولدها.. كل منهما يمسح رأس صاحبه وخديه.. تتأمل وجهه وتزرع حنانها بملامحه ثم تعيده بين جناحيها.. ضمي آلامه يا أمي.. ليتك تضمين أحزاني معه فقد صار ابناك معذبين: واحد بغربة الوطن والآخر بغربة القلب!

جاء الجيران مهنئين بعودة الغائب.. وازدحم البيت بالضجيج والأصوات الصاخبة وأنا غارق في صمتي الممتلئ بسارة.. أراقب الوجوه لأقرأ ما تخبئه.. منهم من جاء فرحًا بحق ومن جاء طامعًا في هدية من بلاد النفط.. ومنهم من جاء ليستمع إلى قصص الغربة وكأننا لسنا جميعًا غرباء بك يا مصر! ما أكذبنا حين نشفق على من يرتحلون عن الوطن.. أيهما أشد قسوة: أن تكون غريبًا بين الغرباء أم غريبًا في وطنك وعقر دارك؟ هل نعيش في حضن الوطن حقًّا؟! فلماذا إذًا أصبحنا نأكل طعام الغرب الذي نلعن ونغني على موسيقاه ونرطن بلسانه؟ تذكرت ذاك الصديق الذي كان يحادثني مفاخرًا بأن ابنه تربى في مدرسة من المدارس الأجنبية المنتشرة

مكتبة عابث الإلكترونية

بمصر وهو يبتسم قائلا إنه في الثانوية ويتكلم العربية بـصعوبة ولا يـتقن أن يكتـب بلغـة "الـضاد" لأنـه لا يتحـدث إلا الفرنـسية والإنجليزية! صار فخرنا بأن لساننا عـاجز عـن النطـق بلغتنـا وأن أبناءنا لا يتحدثون إلا لغـة عـدونا الـذي أذاقنـا ذل الحـضارة! هـل يمكن أن تنهض أمة منبطحة تحت عـدوها مبهـورة بـه؟! إن رقـي الأمـم لا يـأتي بتقليـد الآخـر بـل بمنافـسته وبالثقـة بحـق الـوطن وحريته وثقافتـه.. كـم يـذهلني اليابـانيون الـذين علـى الـرغم مـن تقـدمهم الـشاهق لا يزالـون متمـسكين بأزيـائهم.. برقـصهم.. بعصيهم.. بشكل بيوتهم.. وحدنا صرنا مسخًا مشوهًا لا إلى الغـرب ننتهي ولا إلى الشرق ننتمي.. نتحدث لغتهم ونستقدم حيـاتهم مـع احتفاظنا بقدرتنا على الظلم وعبقريتنا في الاستـسلام أمـام الطغـاة.. فلا نحن حصلنا على حريتهم وتقدمهم ولا نحن احتفظنا بثقافتنا!

تناولنا الغداء الذي حرصت أمي أن يكون عامرًا بكـل أصـناف الطعام.. وكأن الغربة تصيبنا بـالجوع! عفـوًا يـا أمـي نحـن جـائعون للحرية وليس للطعام.. فهل يمكنك أن تقدمي لنا طبقًا مـن الكرامـة.. ومائدة عامرة بأصناف الحقوق المستلبة وليس اللحوم المشوية؟

قام أحمد بعدها ليستريح من سفره.. وأخذت أمي تحـدثني

مكتبة عابث الإلكترونية

عن أحمد وطفولته وكأني غريب عنه.. لكني لم أشأ أن أقطع نشوتها بالحديث عنه.. فأنا أعرف كم يكون توق المحب للتحدث عن حبيبه.. فاستمعت إلى قصص سمعتها ألف مرة من قبل.. تحدثني عن يوم ولادته بقولها: "كان وش رزق من يوم ما اتولد.. وفي الأسبوع اللي فطمته ربنا كرمنا بشقة ملك بدل الشقة الإيجار.. ولما تعب بالحصبة واتحجزت بيه في المستشفى كانت المرضات تيجي تتفرج عليه.. كان أجمل طفل في المستشفى.. وفي دراسته كان متفوق ودايما يطلع الأول"! وكأنني لا أعرف أحمد وأعلم أنه أخفق في تحقيق حلم والدي بأن يلتحق بكلية الطب ولم يذهب به مجموعه لأكثر من كلية التجارة! وأنا أجاريها في الكلام مؤمِّنًا على تميز أخي ونبوغه من دون أن أذكرها بأنني أنا من حققت حلمهما بدخول كلية الطب على الرغم من أنني كنت أتمنى الالتحاق بكلية الإعلام وتنازلت عن حلمي من أجل حلمهما.. فرغت أمي من حديثها عن أحمد.. وجاءني اتصال من محمد اليماني.. فسارعت إلى المقهى حتى أتخلص من ضوضاء المنزل.

عندما وصلت إلى المقهى وجدت الحاج "ناصف".. كان رجلاً على مشارف السبعين من عمره.. له هيئة منمقة ووسامة واضحة..

مكتبة عابث الإلكترونية

يذكرني بعهد الباشوات بلحيته البيضاء المهذبة وشعره الناعم المرسل وصوته الخفيض وأخلاقه الدمثة.. لكنه كان ناصريًّا متعصبًا.. إذا ذكرت أمامه ناصر بسوء يحمر وجهه غضبًا.. وينبري للدفاع عنه مؤكدًا أن لكل ثورة مساوئها.. فيحدثني كيف كانت حقبة الخمسينيات ثرية بأنواع الآداب والفنون.. وعندما أعترض كلامه وأذكره بأن الآداب بأنواعها انتهت بمجرد قيام الثورة.. بدليل أن أسماء كبيرة مثل طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وتوفيق الحكيم ومحمود شاكر وغيرهم كانوا جميعًا أبناء العهد الملكي.. وبعدما قامت الثورة لم يتكرر هذا الجيل إلى عهدنا هذا.. يقوم بتغيير مسار الحديث ليكلمني عن دور الثورة في نهضة التعليم والإصلاح! وأنا ألتمس له العذر.. فليس أصعب من محاولة تغيير قناعات رجل على مشارف السبعين؛ لأنه سيكون قاسيًا جدًّا على نفسه أن يكتشف أنه قضى عمره بكامله في وهم كبير.

عندما وصل محمد استأذن الحاج ناصف في الانصراف.. فقد كان ذوقه يمنحه القدرة على معرفة متى يكون مرغوبًا في جلوسه.. ومتى يجب عليه أن يترك صديقين يبوحان بأسرارهما من دون تدخل من أحد.

مكتبة عابث الإلكترونية

محمد أصبح متحفظًا معي.. أشعر بتغيره في الفترة الأخيرة.. بعدما جلسنا قليلاً سألني بشكل مباشر:

– لماذا تركت العمل بالمشفى؟

– من أخبرك بهذا؟

– علياء اتصلت بي وأخبرتني أنها علمت بحصولك على إجازة مفتوحة.

– هذا أفضل لي ولها.. فلا داعي أن أظل بمكان يجمعني بها.. البعد يصيب اللهفة بالصدأ.. وأنا أرى أنه من الأفضل أن تفقد علاقتنا بريقها الذي يشعل حبها من جديد وعذابي أيضًا.. ليستريح كل منا بعيدًا عن صاحبه أفضل.

– لكن هل تعتقد أن علياء ستنساك بسهولة هكذا لمجرد أنها لا تراك؟

– لا أعتقد أن يتم الأمر بسهولة.. لكني أثق أنه سيتم في النهاية.. فالإنسان خُلق لينسى.. صدقني هي مسألة وقت ليس إلا.

– أتمنى! أقصد حتى لا تظل معذبة بك إلى الأبد.

نظرت في عيني محمد فوجدته مثقلاً بالهموم.. فسألته:

مكتبة عابث الإلكترونية

– ما بك؟ هل تعاني مشاكل أو يشغلك شيء؟

– لا.. أنا فقط مرهق قليلاً.. عاصم.. لماذا كانت تحبك علياء؟

– عفوًا لم أفهم ماذا تقصد؟!

– أعني ما الشيء الذي كان يجذبها إليك؟

فابتسمتُ:

– أعتقد أن علياء هي أفضل من يجيب عن مثل هذا السؤال.. وعلى أي حال نحن لا نحب لأجل مزايا معينة أو صفات محددة؛ لأن كل المزايا والعيوب تنتهي بالتعود.. ومع الوقت ينتهي كل شيء.. فنحن لا نظل حالمين.. ومن كنا لا نظن أن تستمر الحياة من دونه ندرك في نهاية الأمر أننا سنحيا حتى لو فقدنا العالم بأسره! صدقني هكذا تسير الأمور دائمًا.. فنحن لا نؤمن إلا بأنفسنا.. وحبنا للآخرين مرتكز على حبنا لذواتنا في المقام الأول.

– هل أنت مؤمن حقًّا بما تقول.. أم أنك ترضي ضميرك فحسب حتى لا يؤلمك ألمها؟

– صدقني أنا آخر رجل في العالم يمكن أن يخدع نفسه..

مكتبة عابث الإلكترونية

لأنني مؤمن أننا حين نخدع الآخرين نفقد نقاءنا.. أما حـين نخـدع أنفسنا فإننا نفقد وجودنا ذاته.. نصبح أقنعـة تحـوي الفـراغ.. وإذا نزعتها فلن ترى إلا الخرائب والأوهام.

– إذًا فلماذا تزعم أن حبك لـسارة حتمـي وقيـد لا تـستطيع نزعه؟ لماذا لا تنساها بالطريقة ذاتها التي تطالب علياء بـأن تنـساك بها؟!

– لا يمكن أن أنسى سارة لأنني أحب نفسي حـد الجنـون.. ومؤمن بذاتي حد التنسك.. وأحبها لأنها تـشبهني بدرجـة مرهقـة في اختلافها وجموحها المجنون.. ألم أقل لك إننا فقط نحب أنفسنا في صورة من نحب؟!

– أنت تفلسف الأمور!!

– ليست فلسفة.. بل فقط أعرف ما أريـد.. وتلـك قـضيتي.. فإن أكثر الناس غرابة بيننا هم أولئك الذين يعرفـون مـا يريـدون.. هؤلاء يا صديقي إما أن يحققوا المعجزات وإما أن ينتهي بهم الحـال في مصحة عقلية!!

فقهقه:

مكتبة عابث الإلكترونية

- أحسب أن نهايتك ستكون من النوع الثاني أيها الحكيم المجنون.

- نعم يا محمد أنا بالفعل مجنون لكن ما زال خارج الأسوار.. على أي حال رجاءً أن تهتم بعلياء.. فأنا أريد أن أطمئن عليها ولن أستطيع أن أقوم بهذا الأمر بنفسي.. أنت صديق مشترك بيننا وكلانا يثق بك.. فتابع أخبارها من وقت لآخر.

- لا تقلق يا عاصم.. أنا بالفعل حريص أن أظل بجوارها على الأقل في هذا الوقت وتلك المحنة.

مضى وقت طويل على آخر لقاء جمعني بسارة دون تبادل أي اتصالات بيننا.. فقد كنت مصرًّا على أن تكون هي أول من يتكلم.. لا بد أن تطرق بابي ولو لمرة واحدة.. فلن أظل أستجدي لقاء أو سماع صوت! أصبحت أرسل مقالاتي وقصصي لجريدتها عبر "الإيميل" بعدما أصبح لي عمود يومي تحت عنوان "هوامش عاصم يزيد".. وأتلقى الأجر عبر البنك.. فلا أنا أذهب إلى الجريدة ولا هي تتصل بي.

كان غالب همي في هذه الفترة أخي أحمد الذي أصبح صامتًا

مكتبة عابث الإلكترونية

أغلب الوقت.. يغلق غرفته عليه بالأيام.. ونادرًا ما يغادر المنـزل.. أمي قلقة عليه.. دائمًا تشكو لـي: "أحمـد لا يـريح قلـبي غائبًـا ولا حاضرًا.. بعدما انقطعت أخباره عني سنوات لا أعرف فيها إذا كـان ابني حيًّا أم ميتًا.. قلبي يتمزق كـل يـوم ألـف مـرة.. وعنـدما جـاء وأصـبحت أراه أمـامي مـا زال يقلقـني بـصمته.. لمـاذا يخفـي عنـا همومه؟ ليته يتكلم معي ليرتاح.. ألست أمـه؟ راعِ أخـاك يـا عاصم واعرف ما به.. حاول أن تخفف عنه فهو لا يقبل مني كلامًا.. قلبي ينفطر عليه.. ماذا حدث لك يا حبيبي؟ ماذا فعلوا بـك؟ أيـن أبـوكم ليشاركني همي ويرى ما حدث لأبنائه".. ثـم انهـارت باكيـة وأنـا أقـف عـاجزًا بـين أمـي وأخـي.. أحـاول أن أخفـف ألمهـا وأكفكـف دموعها وأتعلل بأنه فقط لم يتعـود علـى الحيـاة في مـصر بعـد طـول غربـة.. وإن كنـت في داخلـي أعلـم يقينًـا أن شـرخًا هـزم أخـي مـن داخله.. غير أنني لا أعرف من هذا الذي هدَّ بنيانـه وحطـم روحـه وشوه حلمه وقلبه الصافي!!

أصبحت حريصًا على تناول طعامي معه.. أشاركه غرفتـه.. أسهر معه كل ليلة على غير رغبته.

قال لي:

مكتبة عابث الإلكترونية

- لماذا تترك غرفتك وتشاركني المكان؟ إذا كنت تريد هذه الغرفة فخذها وأنتقل أنا لغرفتك.

- كلا.. بل فقط أشتاق للجلوس معك.. ولن أغادر غرفتك.. أنت رهن الاحتلال حتى تقبل شروط الجلاء.. وأولها: أن تخرج معي نتمشى سويًا.. أريد أن ألقنك درسًا في الشطرنج.. قديمًا كنت تهزمني لكن أعدك أن هذا الزمن قد انتهى ولن أرحمك على رقعة الشطرنج.

فتبسم دون أن تظهر أسنانه:

- قد نسيت هذه الأشياء يا عاصم.

اعتدلت في جلستي:

- أحمد.. أمك تموت من قلقها عليك.. ارحم ضعفها واخرج معي حتى تطمئن عليك.. منذ انقطعت أخبارك وأمك تعيش خارج الزمان والمكان.. تذكرك كل لحظة.. تموت حزنًا وخوفًا عليك.. لم تعد لها الحياة إلا بعد اتصالك بنا قبل شهور من عودتك.. فلا تُعِد إليها أشباح الخوف والحزن.. أعرف أنك شاهدت أهوالاً في العراق ولا أريد أن أضغط عليك في شيء.. وحتى لا أطالبك بالكلام عما

مكتبة عابث الإلكترونية

حدث لك إلا عندما تريد أنت.. أنا أخـوك يـا أحمـد فـدعني أحمـل شيئًا من حزنك.. فمشاركة الأحزان تخفف من وطأتـها.

غزت الدموع عينيه:

– ماذا أقول؟ وماذا أحكي لك يا عاصم؟ وأي مـصائبي يمكـن أن تحتملها معي؟ حملي ثقيل جدًّا ولن أحتمل أن أنقـل أحزانـي إلى أقرب الناس لـي.. لا أريـد أن أحـرق قلـوبكم بـألمي.. فلـم يعـد لـي غيركم.. فكيف أطيق أن ألقي بمأساتي على قلوبكم؟

– إذا لم نشاركك نحن فمن؟ بالله يا أحمد قُم واخرج معي.

بعد ضغط طويل استجاب لي.. وخرجنا سويًّا لأحد المطاعم.. تناولنا عشاءً ثم قلت له: ألا تشتاق للنيل؟ تعالَ لنقـف قلـيلاً عليـه نستنشق هواء طالما كنت محرومًا منه!

اخترت أحد المقاعد بعيـدًا عـن زحـام المترددين علـى ضـفة النهر.. لا يشاركنا فيه إلا النجـوم وحـزن النهـر القـديم.. وفي جـوٍّ نصف مظلم جلسنا صامتين لمدة.. ثم تكلم أحمد بعدما نظر طويلاً إلى النيل:

– هـل تعـرف أن النيـل يـشبه نهـر الفرات؟ الماء الطـاهر

مكتبة عابث الإلكترونية

نفسه.. والحنين ذاته الذي يربطك به.. دائمًا كنت أقف على الفرات في ليالٍ يغطيها الموت والدماء.. وأقول له: احمل أشواقي وسلامي إلى النيل.. ألستما أخوين من رحم الماء؟ يقولون: إن النيل والفرات نهران ينبعان من الجنة.. لا أعرف كيف هذا.. لكني كنت أشعر حقًّا أنهما ليسا من جنس الأنهار.. فلهما قداسة غريبة وسر لا أفهمه لا هنا ولا هناك!

عندما شعرت أن أحمد بدأ يتحدث عن العراق شجعني ذلك على أن أستكشف أسراره بلطف حتى لا أزعجه بأسئلة مباشرة.. فقلت له:

– هل أحببت العراق؟

صمت قليلاً ثم قال:

– العراق؟ العراق هو توأم مصر.. الوجوه الطيبة نفسها.. لم أكن أشعر أني غريب بعيد عن وطني.. كانوا يحتفون بنا لمجرد أننا مصريون.. يقولون إن مصر فقدت مكانتها في نفوس العرب جميعًا عدا الشام والعراق.. مهما هانت في عيون الآخرين وانسحقت مكانتها يبقى الشام والعراق يحملان لها التقدير والحب.. أحسست

مكتبة عابث الإلكترونية

بهذا حقًّا في عيونهم.. أما في الخليج عندما كنت به قبل السفر للعراق فقد تعرضت للسجن ثلاثة أشهر لأنني استهجنت نظام "الكفالة"!

قلت لكفيلي ذات يوم: "يا أخي نحن مسلمون وعرب.. لا فرق بيننا.. ولست عبدًا لك".. فضحك ساخرًا مني وقال: "بل أنت ملك لي ما دمت كفيلك هنا.. ولو أبغي أحط حبل في رقبتك وأجرك".. غلت الدماء في عروقي لما سمعت إهانته فقمت وصفعته على وجهه.. فما كان منه إلا أن أبلغ شرطة البلد بأنني هارب من الكفالة وطالب بترحيلي.. وجاءت الشرطة واعتقلتني ثلاثة شهور حتى تقدم أحد أصدقائي ودفع مبلغًا كبيرًا للكفيل حتى يتنازل عن بلاغه.. أي إهانة وذل حين نذوق الظلم على يد من كنا نقول إنهم أشقاؤنا؟ أبناء أوروبا الغرباء يأتون إلى بلادهم فيفعلون الموبقات ولا يسألهم أحد عن شيء فقط لأنهم يحملون كرامة بلادهم التي جاءوا منها.. فكونك بريطانيًّا أو فرنسيًّا أو أمريكيًّا هذا يعنى أنك أنت الدولة نفسها ومن يمسّك بسوء فقد مسّ دولتك وأساء لها.. وهذا ممنوع وله عقاب.. لذلك كانت كرامتهم محفوظة وجانبهم مهابًا.. ونحن الإخوة في العروبة والإسلام لا ندخل بلادهم إلا بالكفيل..

مكتبة عابث الإلكترونية

وإن اعترضت على الظلم عاملوك كالعبد الآبق الهارب!

لم أحتمل الحياة هناك بعدما خرجت من السجن وقررت أن أعود لمصر.. لكن رغبت في قضاء العمرة قبل عودتي.. وهناك في الحرم قابلت عراقيًّا شعرت بارتياح كبير معه.. كان اسمه "فضل".. وقد كان فعلاً اسمًا على مسمى.. بقينا في الحرم سويًّا بضعة أيام.. وقصصت عليه ما حدث لي.. فعرض عليَّ أن أذهب للعراق للعمل هناك.. قلت: ولكن أنتم تحت الحصار منذ سنوات وأعتقد أن الحال عندكم لن يكون أفضل كثيرًا من مصر.. فقال: لا والله يا أخي لا يزال العراق بخير.. فإن شئت دبرت لك عملاً جيدًا. حقيقة يا عاصم وبعدما حدث معي رأيت أنني لم أحقق شيئًا في السعودية وسأعود خالي الوفاض.. فوافقت على عرضه.. وسافرت قبل غزو العراق بتسعة أشهر.. نعم تسعة أشهر فقط كانت حبلى بالسعادة والنجاح.. أصبحت فيها أحتل مكانًا كبيرًا بالمؤسسة التي أعمل بها.. وخلال هذه الشهور التسعة تعرفت على زميلة عراقية اسمها "عائشة".. تلك التي راسلتكم وقتها بأنني أنتوي خطبتها.. تسعة أشهر انتهت بمخاض أليم.. وجاء وقت الوضع.. وياله من وضع ومخاض! فبعد السعادة جاءت طائرات أمريكا وبوارجها والناس لا

مكتبة عابث الإلكترونية

يدرون هل ستقوم الحرب فعلاً أم أنه فقط تضييق للحصار! فكرت وقتها في العودة لمصر ولكن كانت الطرق كلها مغلقة.. والأبواب كلها موصدة.. ولا سبيل للخروج من العراق ولا الدخول إليه.. وجاء إنذار القوات الغازية برحيل صدَّام أو بدء الحرب.. أصبح الناس ساعتها على يقين بأن الحرب واقعة لا محالة.. فليس هناك زعيم عربي ينزل عن عرشه إلا قتيلاً أو طريدًا.. إما بإرادته وإما بإرادة شعبه.. وهذا مستحيل.. والحق أقول لك يا عاصم كنت أكره أن يستسلم لهم صدام.. فإذا كان هؤلاء الحكام قد جاءوا إلينا على ظهر دبابات الانقلابات.. فلا أحب أن يرحلوا على ظهر دبابات العدو والغزاة.. وقامت الحرب.. وغرقت بغداد تحت أمطار الجحيم يصبون النار علينا ليل نهار.. حتى سقطت قذيفة على بيت عائشة فقتلت كل أهلها ونجاها الله؛ إذ كانت خارج البيت وقتها.. وشعرت أنه حتى لو أتيحت لي فرصة الهروب من جحيم العراق فلن أفعلها لأنني أصبحت كل من بقي لعائشة. عرضت عليها أن نخرج سويًّا لسوريا ومنها إلى مصر.. فرفضت بعنف وقالت لن أغادر بلدي لأتركه للغزاة يأكلون من أرضه ويشربون من مائه.. فكبرت في نظري وتصاغرت أمام عزمها المتقد.. قررنا الزواج.. زواج

مكتبة عابث الإلكترونية

على طبول الحرب وزغاريد القنابل الذكية.. زواج بنكهة الموت.. وفرح بمذاق الدمار والخراب.. ننتقل من محافظة لمحافظة ونتابع أخبار الحرب فرحين بالمقاومة الباسلة في بدئها.. استشعرنا أن الغمة أوشكت أن تنزاح عندما كنا نسمع تقارير "الصحاف" عن ذبح العلوج وتوعده بأن بغداد ستكون مقبرة الغزاة.. الدجل العربي نفسه في كل مكان.. والشعوب كقطيع لا يدري ماذا يدبر له الذئب الراعي!! الطبلة والمزمار ذاتهما اللذان خدعونا بهما في هزيمة 67.. خدعونا هناك وخدعونا هنا.. قديمًا إذاعة صوت العرب وحديثًا إذاعة صوت "الصحاف".. خرجت علينا إذاعة صوت العرب: أسقطنا عشرين طائرة لبني صهيون.. وبعد ساعة صارت مئة طائرة.. أحرقنا دباباتهم.. أغرقنا بوارجهم.. ثم استيقظنا على ضياع سيناء وذبح جنودنا.. خدعونا ووضعوا رءوسنا في رمال الكذب والعهر الإعلامي.. لم يكفهم ظلمهم لنا حتى جعلونا عبيدًا وجواري نباع في سوق العدو بلا ثمن.

دخلت أمريكا إلى رحم بغداد وهتكت العرض الطاهر.. وما زال المدجلون يمارسون سحرهم الأسود.. يتحدثون أنها خطة موضوعة وكمين مدبر.. وكثر الكلام عن الأنفاق السرية التي تقبع

مكتبة عابث الإلكترونية

بها مئات الدبابات وآلاف الجنود جاهزين للانقضاض على العلوج وسحق أمريكا وجيشها.. ومرت الأيام ولم تخرج الدبابات ولا انتفض الجنود.. وعاث رعاة البقر فسادًا في بيت الرشيد.. وبكت "ولادة" في خمارها لا تجد من يعيد لها شرفها.. وأخرج مخانيث هوليوود جثة "المتنبي" ليصلبوه على عمود الإعلام العالمي الجديد.. ونام رب البيت الأبيض في قصور بني العباس.. وغاص العراق في لجة الظلام.. كل يوم نسمع عن فصيل مقاوم.. هذا سني وهذا شيعي.. وهذا من العراق وذاك جاء من أرض الأفغان لينقذه.. كلٌ يزعم أنه المحرر وأنه دواء الداء وسر الشفاء.. وأمريكا تعلن للعالم عن عالمها الجديد والفوضى الخلاقة.. يزفون للعالم عرس الديمقراطية الوليدة ويبشرون بأن المسيح الجديد ترك حضن مريم المقدسية وجاء من واشنطن حاملاً أكاليل الخلاص.. فافرحي يا بلاد العرب وفرجي قدميك لبشارة السماء أو حتى لبشارة الشيطان.

كنا ننتقل من بلدة لبلدة ومن بيت لبيت.. أهرب بعائشة من الموت الذي يلف جسد العراق في شال أحمر بلون دماء الأطفال والأرامل.. استيقظنا ذات يوم ونحن بـ"الفلوجة" على خبر تفجير

مكتبة عابث الإلكترونية

مسجد "الإمام" وانهيار قبته المقدسة.. فأخرج الخراب رأسه وانتفضت شرارة الفتنة الكبرى.. البعض يقول إن الأمريكيين هم من فعلوها حتى تنشغل الكتائب المقاتلة من السنة والشيعة بنفسها.. وآخرون يقولون بل إيران هي من فجرت المسجد لتستقطب الشيعة إليها.. وثالث يردد بل تنظيم القاعدة.. وأيًّا من كان الفاعل فقد بلغ مراده وارتفعت ألسنة اللهب وهبت الرياح لتنشر النار في العراق كله.. فأصبحنا نسمع عن كتائب الموت.. "جيش المهدي" الذي يقتحم منازل السنة فيذبح النساء والأطفال.. فيرد تنظيم القاعدة بتفخيخ السيارات وتدمير الحسينيات وتفجير الأسواق.. من يقتل من يا عاصم؟ انتقام أعمى وحرب مقدسات بين أفراد لا يعرفون عن القداسة شيئًا.. أيادٍ تتوضأ بالدماء وقلوب لم يعرف الإيمان لها طريقًا.. كلهم يتحدثون باسم الله دون أن يرفعوا أعينهم للسماء يومًا ليروا كيف أن السماء تلعنهم وتصب على رءوسهم آيات الدموع من مآقي المظلومين.. فكل الجرائم في أوطاننا تُرتكب باسم الله!

أصبح الجميع وكلاء عن فردوس السماء.. يقدمون صكوك

مكتبة عابث الإلكترونية

الغفران لمن يؤمن بحقهم في الحكم والسيادة فقط.. ومن كفر بهم فمصيره الموت تحت أنقاض بيت من بيوت الله!!

النساء والأطفال وحدهم من يدفعون الثمن وفاتورة السيادة بين السنة والشيعة.. هل هذا زمن الجهاد العظيم.. جهاد الأسواق وذبح النساء في البيوت؟ في أي زمن قد قذفتنا أرحام الأمهات؟ ليتهن لم يلدننا فقد جئنا إلى هذا العالم في التوقيت السيئ والمكان السيئ والضمائر الشائهة.. حتى أصبحت أشك في فخري بعروبتي وسعادتي بأني أنتمي إلى تلك البقاع التي يقتل الأخ فيها أخاه على هويته وانتمائه.. الزمن القبيح الذي يستعبد فيه أغنياء بلاد النفط فقراء إخوانهم في مصر والشام والصومال والسودان.. أصبحنا أمة توفر على عدوها جهده ورصاصه وبيديها تذبح نفسها!!

ووسط هذه الأحزان كلها قد تبعث لك يد القضاء بأمل حتى تهرول مرة أخرى خلف قاطرة الحياة.. وساعتها تشعر بالطعنة أكثر.. فإن من لا يملك شيئًا لا يخاف على شيء.. وليس من شيء في الوجود يجعلك أحرص على الحياة والنجاة من وجود طفل تتمنى أن تحقق فيه ما أخفقت أنت في تحقيقه.. ولكن لم يكن هذا زمن الأمل

مكتبة عابث الإلكترونية

ولا وقت الرجاء.. فكان ميلاد طفلي سببًا جديدًا للشقاء وقيدًا يزيد من وقع القيود.. كنت سعيدًا به وشقيًّا بمستقبله! كيف سأضمن له النجاة من هذا الجنون؟ فنحن جيل فقد الأمل في مستقبله وأصبح محاسبًا على ماضيه أيضًا.. نعيش في لحظة مبهمة.. لا تمتلك حق الرجوع ولا تمتلك رفاهية التقدم.. فعليك أن تقف حيث أنت تنتظر ما يقرره لك الآخرون!

أصبح العراق جحيمًا في جحيم.. فبين نار المحتل ونار الفتنة نعيش.. ولا ندرى من أي البنادق ستستقر الطلقة الأخيرة في صدورنا.. من بنادق العدو أم الشقيق! "الفلوجة" كانت المدينة الأولى التي أشعلت شرارة المقاومة السنية للمحتل.. وأطلقت الرصاصة الأولى على رأس المارينز.. فجاءت إلينا قوات أمريكا تساندها قوات الجيش والشرطة العراقية ليسحقوا المقاومة في مهدها.. أصبحت الفلوجة فرنًا يحرق كل من بداخله.. فخرجت بعائشة وطفلنا واستمرت رحلة الهروب من ذئب الموت الذي يطاردنا من محافظة لمحافظة ومن مدينة لمدينة.

مرضت عائشة مرضًا شديدًا بعدما أقنعتها أخيرًا بضرورة الخروج من العراق لأهرب بها وبطفلنا الرضيع.. اختلطت الأوراق

مكتبة عابث الإلكترونية

يا عائشة وأصبح قتل الأمريكي جهادًا وقتل العراقي جهادًا أكبر.. الدم العربي كدم الغازي.. لا نعرف من العدو ومن الرفيق! سألقي ببندقيتي في جوف "الفرات".. فوحده يعرف من الصادق ومن الخائن.. فلتقاتل أنت يا فرات عن أرضك فقد سقطت كل قناعاتنا وعمي البصر فينا والبصيرة.. سأحمي أسرتي وللعراق نهر يحميه!! فلنهرب يا عائشة فهذا زمن الهروب الكبير من أوطان توحشت علينا ومن أشقاء تصيدنا بنادقهم لأننا سنة أو شيعة!

اقتنعت عائشة أخيرًا بحجتي.. لكن حجتي لم تكن كافية لإقناع القدر.. فأبى إلا أن نمكث بالعراق.. اشتد المرض على عائشة حتى أقعدها عن الحركة والتنقل.. ولم تكن المشافي آمنة لعلاجها.. فالموت في كل مكان.. لا مشفى يشفيك ولا مسجد حرمته تحميك.. فمساجد السنة أهداف مشروعة للشيعة ومساجد الشيعة صيد ثمين للسنة!

وفي ليلة خميس أسود كنت أصلي لله كي ينجينا من المحن ويرحمنا من البلاء الذي يلفنا.. استشعرت أن السماء تقول لي: أنتم من خذلتم أنفسكم.. فادفعوا ثمن هوانكم وصمتكم تحت ربقة عروش الأصنام! اشتد الظلام من حولي وسمعت أصوات الخيانة

مكتبة عابث الإلكترونية

وفحيح الأفاعي من خلف الأبواب.. نزلت شياطين الجحيم وغادرت الأبالسة قيودها وجاءوا لسحق آدم من جديد.. سمعت طرقًا عنيفًا على باب البيت.. لم نكن نعرف أحدًا ممن يسكنون بجوارنا.. فقلت: من يطرق الباب؟ فرد الشيطان من خلف بابي: "افتح يا نجس يا ابن القحاب وإلا فجرنا البيت على رءوسكم".

نجس؟! لماذا أنا نجس يا عاصم وأنا لم أقترف كبيرة.. ولم أخن شقيقًا.. ولا هتكت شرفًا؟! الصوت عربي والكلمة عربية والجرح عربي أيضًا.. فلماذا يناديني بابن القحاب؟ لماذا تسبني يا شقيق العروبة؟ يا رب ارحم ضعفي واحفظ زوجتي وابني الذي لم يعرف من الدنيا شيئًا!

فتحت الباب فاقتحموا البيت كأسراب النمل وجحافل الجراد يغطيهم السواد.. لست أدري أيهم كان أشد سوادًا أغطيتهم أم قلوبهم!

سألني أحدهم: هل أنت عراقي؟ فقلت: بل أنا مصري.. لكن زوجتي عراقية.. فصفعني: يا ابن الفراعنة جئتم تأكلون خير العراق يا أنجاس وملأتم الأرض بفسادكم.. من أذن لك أن تتزوج من

مكتبة عابث الإلكترونية

عراقية يا نمرود؟

قلت له: وممن يجب أن أستأذن إذا كانت زوجتي تقبل؟

فضربني بمؤخرة بندقيته في وجهي فسقطت مغشيًّا عليَّ.. وعندما أفقت وجدتني مربوطًا بالحبال وبجواري عائشة دامية.. وابني "يزيد" لا يقوى حتى على البكاء.. أحد الذئاب كان يقف على رءوسنا.. رفع اللثام عن وجهٍ كالح لا ينبئ عن الرحمة.

قلت له: من أنتم؟ وأين نحن؟ ولماذا تحتجزوننا؟

قال: نحن الموت الذي جاء ليقبض أرواحكم.. نحن "جيش المهدي".

- لكن نحن لا نتعامل مع المحتل ونريد الخير للعراق.

- ونحن نريد أن نطهر العراق منكم يا وهابي يا نجس.

عرفت القضية وقتها.. نحن هنا لأننا سُنة!

ألم أقل لك يا عاصم أصبح كونُك سنيًّا جريمة أعظم من خيانة الوطن؟ سنذبح لأن أسماءنا "عمر" أو "عثمان" والكارثة أنهم عرفوا أن اسم زوجتي "عائشة" وأن ابني "يزيد".

مكتبة عابث الإلكترونية

دخـل ثلاثـة آخـرون يمـسكون في أيـديهم مثقابًـا يـسمونه "الدريل".. هل تدري ما هو الدريل يا عاصم؟ إنـه مثقـاب للحـوائط يـسحق الـصخر والحديـد ويثقبـه.. لكـن لم يكـن معهـم مـن أجـل الجدران بل من أجلنا نحـن.. فقـد كانـت تلـك وسـيلتهم المفـضلة في التعذيب والقتل الرهيب.. بدءوا بعائشة.. كان اسمها كفيلاً بإشعال الحرائق في نفوسهم المريضة.. جردوهـا مـن ملابـسها وهـي تـصرخ تحت أحذيتـهم الغليظة يدوسون وجهـها وأنا عاجز مقيد.. تـصرخ: يا رب يا رب.. وجاء وقت الدريل.. بدءوا بقـدميها يثقبونهـا بـين كل ثقب وآخر موضع إصبعين.. الدماء تنفجـر مـن كـل مكـان وهـي تصرخ: اتقوا الله.. أنا مسلمة عراقيـة.

فيضحكون: "هل ركبت الجمل لقتال أمير المؤمنين علـيٍّ يـا فاجرة"؟!

أي جنون هذا يا أبناء الجحيم؟! يحاكمون زوجتي عن فتنة عمرها ألف عام.. عائشة ربمـا حتـى لا تعـرف قـصة "الجمـل" ولا تدري لماذا قاتلت "عائشة" أم المؤمنين "عليًّا" أمير المؤمنين!!

لكن ستدفع ثمن اسمهـا باهظًـا والـثمن هـو الـدم والحيـاة..

مكتبة عابث الإلكترونية

فهذا زمن القتل على الأسماء!

بعد ساعات من التنكيل والتعذيب والقهر.. قرروا قتلها وهي في الرمق الأخير.. نظرت لي: "سامحني يا أحمد فمن أجلي حدث لك هذا كله".

لا يا عائشة.. لا يا حبيبتي.. لا يا زوجتي.. ليس ذنبك! وعند الله نلتقي بعيدًا عن مملكة الظالمين قساة القلوب الذين يذبحوننا لأجل أسمائنا.. ولتحترق يا عراق بيد أبنائك ولتدفع الرحم الطاهرة ثمن الولد العاق.. من الذي يقتلك يا عراق: عدوك أم بنوك؟ وضعوا الدريل في مفرق رأسها وتحرك عمود الحديد يسحق العظم ويمزق الرأس الذي لم يحلم سوى بالخير والأمنيات البريئة.. ماتت أمام عيني.. ثم أحرقوا جثتها أمامي ليزيدوا من قهري وذلي.. حملوا جثتها التي يتطاير الدخان الأسود من احتراق قلبها الأبيض ليلقوا بها في مقالب القمامة لتأكل كلاب العراق جثث أبنائه.. وليكن بطن كلب ضال أمينًا عليها أكثر من جوف قبر عراقي.

"يزيد".. لم يرحموه.. قالوا لي: سميته باسم قاتل

مكتبة عابث الإلكترونية

"الحسين"؟ والله لنحرق قلبك يا ملعون. صرخت فيهم: سميته باسم أبي.. ما لي والحسين ومن قتلوه؟ اقتلوني قبل أن تفعلوا به شيئًا.. لكن لا أذن تسمع النداء ولا قلب يرق للضعف والرجاء.. كانوا يريدون إذلالي وسحق قلبي.. رفعه جندي من ذراعه الغضة الضعيفة.. فصرخ يزيد صرخة الزهرة المظلومة والعصفور التائه تحت عواصف النار.. استحلفتهم بالله وما يعبدون أن أحمله لدقيقة واحدة.. أخذته أضمه لصدري بيد مقيدة وقلب كسير.. فابتسم يزيد وشعر بالأمان في حضن والده.. لا يعلم أن أباه قلعة سقطت أسوارها ودرع من ورق لا تحمي دمًا ولا تدفع شرًا.. ظل على بسمته الوادعة يعبث بأنامله الصغيرة في وجهي.. لا يعرف المسكين ماذا ينتظره على يد هؤلاء الهاربين من مملكة النار.. انحنيت عليه لأقبله القبلة الأخيرة وقبل أن تستقر شفتاي على جبينه الصغير نزعه أحدهم من بين يدي ليظل المر عالقًا بشفتي ما حييت.. أمسكه جندي من يمينه وآخر من شماله وقالا: انظر ليزيد.. وجاء الثالث فحز عنقه بسكين يزيد طوله على طول طفلي.. قطعوا رقبته.. نحروا شراايينه كعصفور.. لم يجنِ من الدنيا شيئًا ولم ينطق فيها

مكتبة عابث الإلكترونية

بكلمة.. سالت الدماء تغطيه وهو ينتفض تحت مخالب القسوة الخائنة.. وتغطي معه قلبي وأحلامي التي حطموها ليشعلوا النار في روحي ما حييت على ولدي وزوجتي. وضربت الفاجعة عمق قلبي وأنا أصرخ بصرخة عائشة: يا رب.. يا رب.. ليس لي غيرك في الأرض من ملاذ.. لا أصرخ إلا عليك يا الله.. وسقطت فاقدًا وعيي.

انهار أحمد باكيًا بين يدي وأنا أضمه لصدري.. أشاركه الدموع الغزار والنار تأكل قلبي.. وأنا أجهش بالبكاء.. رحماك يا ربي بأخي: كل هذا احتملته يا مسكين؟ أي بشر له طاقة بهذا؟ اللعنة على أوطان تسحق أبناءها وتلقي بجثثهم للكلاب.. هل ندافع عنك أيتها الأوطان أم نشن الحرب ضدك أيتها القاسية؟ تماسك أحمد بعدها قليلاً وقال لي:

– لا أدري لماذا لم يقتلوني.. ففي العراق لا تدري ما سبب موتك ولا سبب حياتك.. فمصيرك معلق دائمًا بقرار الآخرين.. وعليك أن تدفع ثمن أخطاء ارتكبها غيرك.. ظللت أهيم على وجهي فاقدًا رشدي.. وألقت بي الشرطة في مصحة للمجانين.. لا أدري هل بقيت بها شهورًا أم سنين.. حتى عاد لي رشدي.. فذهبت لبيت

مكتبة عابث الإلكترونية

"فضل" الذي كـان يـشعر بعقـدة الـذنب نحـوي.. أشـاهد المأسـاة بـلا شعور.. لا أحزن لمن يقتلون كل يوم ولا تزعجني أصوات الانفجـارات في كل مكان.. لم أعد أكترث حتـى لـو احـترق العـالم بأسـره.. فقـدت إيماني بكـل شـيء: بـالوطن.. بـالحق.. بالحريـة.. بـذاتي.. وحتـى إيماني بالسماء أصبح باهتًـا.. اسـتوى عنـدي المـوت والحيـاة والـشك واليقين.. وقـررت العـودة بـأي طريقـة حتـى لـو كانـت حيـاتي هـي الثمن.. لا بد أن أغـادر هـذا الجنـون.. ووعـدني فـضل بـأن يجـد لـي طريقة يخرجني بها من العراق.. وفي غضون أيام جـاء يخبرنـي بأنـه اتصل بأحد أصدقائه في الحكومة الجديدة ووعده بأن يجـد لـي مقعـدًا على أول طائرة تقلع لمصر.. وعلى باب الطـائرة وقـف "فـضل" باكيًـا: سامحني يا أحمد.. أنا من جئت بك إلى هنا حيث سقتك الأقدار كـأس العذاب.. فقلت له: لا تعتذر يا فضل فهذه أقدارنا نسير عليها بغـير إرادة.. نسير ونبتسم أو نصرخ لكن لا بد لنا من المسير.. وجئت إليكم حاملاً همومي وأحزاني.. هل فهمت الآن يا عاصم لمـاذا كنـت أحجـب عنكم أمري؟ حتى لا تشاركوني ميراث الألم.

أصبحت الكلمات عالقة في حلقي:

مكتبة عابث الإلكترونية

– ماذا يمكن أن أقول لك يا أحمد؟ لك الله وحده.. فأي كلمات سأقولها لن تخفف من حجم ما قاسيت.. فاصبر إنما هي أقدارنا نسير عليها وعسى أن يجعل الله لنا فرجًا قريبًا لكل أوطاننا.

فتبسم بسمة اليأس:

– صدقني لم يعد يعنيني شيء.. لم يعد لي وطن ولا قضية.. إنما أعيش فقط لأني لم أمت بعد! !

غادرنا المكان وأنا لا أدري هل فعلت الصواب عندما أخرجت هذا البركان المختنق في صدره.. أم أنني أخطأت حين أعدت الحياة لذكرياته المفزعة؟ لكن ما كنت واثقًا منه أنه استراح ولو قليلاً عندما شاركته حمله.

مكتبة عابث الإلكترونية

الفصل الرابع

قررت بعد ذلك أن أكتب مجموعة من المقالات عن العراق محملة بغضبي الذي انتقل لي بما لاقاه أخي.. فكان أول مقالاتي في الجريدة "أيها الشيعة.. لكم دينكم ولي دين".. فاستحسنه رئيس التحرير على الرغم من قسوته ونصه اللاذع.. ربما لأن سياسة الدولة مخالفة لإيران على طول الخط فلاقى المقال هوى أنفسهم.. ثم أتبعته بمقال "الحلم الكاذب": "احمل حلمك أيها المسيح الكذاب وامضِ عن بلادي.. منذ متى يعطف الذئب على جوع القطيع؟

مكتبة عابث الإلكترونية

أمريكـا الـتي حطمـت أمـة بكاملـها لمجـرد بـضع سـفن أُحرقـت.. وذبحت مئات الآلاف في فيتنام لأجل الحلم الكبير.. جاءت لتعلمنا الحرية.. حرية بمذاق الذل والمهانة.. عفوًا يا راعي البقر.. الحرية لا تُمنح ولكن تُنتزع.. لأن مـن يمنحهـا اليـوم يـسلبها غـدًا".. كـان مقالاً طويلاً ناقمًا على أرباب الحرب الصليبية الجديدة.

وكان المقال الثالث بعنوان "لماذا مروا من هنـا؟".. فلـم يكـن ممكنًا أن أتجاهل دور النظام المصري في غزو العراق.. فقناتنـا كانـت هي الطريق السهل إلى قلب العراق.. والسهم المنطلق لصدره من قوس قناة السويس خرج.. أي قانون دولي هذا الذي يجعل الـشقيق يـسلم شقيقه لسكين الجـزار؟ لماذا كـان رصاص جنودنـا حمايـة لبـوارج أمريكا لتمر إلى ذبح بغداد.. إذا كان هناك قانون دولي فأين القـانون العربي؟ أين الضمير العربي؟ أيـن النخـوة العربيـة؟ كلـها سـقطت حين مروا بين شراييننا لذبح العراق. لكن فوجئت بأن المقال لم يـتم نشره.. اتصلت برئيس التحريـر فتعلـل بكثـرة المـادة المنـشورة وأن المقال طويل جدًا.. فقلت له بحزم: إما أن تنشر المقال في العدد المقبل أو انتظر استقالتي من العمل معكم.. حاول تبرير موقفه معترفًا بأن المقال نقـد لاذع للنظـام وأن جريدتـه جريـدة قوميـة!! فقلـت لـه:

مكتبة عابث الإلكترونية

قومية أم حكومية؟ هل معنى أن الدولة تدفع لكم رواتبكم أن تكتبوا فقط في التغزل بها والتسبيح بحمدها؟ وهل إذا كان تمويل الجريدة بتبرع إسرائيلي فهل هذا يعني أنكم ستصدرونها بالعبرية لتغسلوا وجه صهيون؟! إن أمة لا تمتلك حق الاعتراض فهي لا تمتلك حق الحياة.. عفوًا سيدي.. أما أنا فلن أتحدث من بطني الذي تطعمونه براتبكم بل سيظل قلمي مؤتمِرًا بأمر رأسي وليس الـ"فيزا كارد".. غدًا ستصلك استقالتي عبر البريد. أغلقت الهاتف دون أن أنتظر رده.

في اليوم التالي جاءتني رسالة من سارة: "من فضلك لا تتسرع في اتخاذ القرار".

لم أهتم برسالتها وقررت ألا أرد عليها.

هل أصبحت يا سارة طريقهم إلى قلمي؟ وهل عرفوا أنك وحدك من تستطيعين تغيير قراراتي؟ لكن هذه المرة لن يجدي معي شيء ولا حتى أنت.. لن تساوموني على التخلي عن حق الغضب فلم يعد لنا غيره.

اتصلت بي بعدها تطلب مقابلتي.. فقلت لها: يسعدني

مكتبة عابث الإلكترونية

مقابلتك.. لكن أمر الجريدة منتهٍ فلا تزعجي نفسك بإقناعي.. فردت: لا.. أنا فقط أريد أن أراك فأنت لم تتصل بي منذ شهور.. وكنت أنتظر مكالمتك حتى يئست فقررت أن أخطو أنا إليك.. فإن لم أكن أوحشتك فإنك أوحشتني.

غريب أمرك يا سارة.. الآن تفتقدينني.. الآن فقط.. هكذا لا تأتي الأشياء التي يطول انتظارنا لها إلا في التوقيت السيئ.. هل يمكن أن يأتي الحب في زمن لا يصلح إلا للغضب؟!

اتفقنا على أن نلتقي في العاشرة مساءً.. لكن هذه المرة لم يكن لقاؤنا بالزمالك وإنما بمقهى في وسط البلد حيث يستهويني الذهاب إلى هناك دائمًا.. فلم يعد يسعنا إلا الأماكن المحايدة ونقاط المنتصف.

التقيتها أخيرًا.. كعادتها فاتنة.. لا سيَّما أنها ترتدي اللون الأزرق.. تخللني عطرها الأثير قبل أن أصافحها:

– اشتقتك يا سارة!

ابتسمت:

– ولهذا لم تتصل بي كل هذا الوقت؟!

مكتبة عابث الإلكترونية

- أنت تعلمين جيدًا أنني قدمت كل شيء وأخبرتك بمكنون صدري.. لم يكن ممكنًا أن أفرض عليكِ علاقة من طـرف واحـد فأنـا أكره الطرق أحادية الاتجاه؛ لأننا إذا أخطأنا في سيرنا واكتـشفنا أن اللافتة على ناصية الطريـق كانـت خدعـة ساعتها لـن نمتلـك حـق الرجوع وسنخضع لحب بطعـم الألم تحـت الإقامـة الجبريـة.. وأنـا رجل ما زال يؤمن بحق تقرير المصير.

- كلماتك تربكني.. فأنا أخشى مـن الرجـال الـذين يتقنـون لعبة الكلمات.. لا يمكن القبض على معـانيهم أبـدًا.. مـاذا تفـضل: العصير أم القهوة؟ فأنا دعوتك وأنا من سيدفع الحساب.

- المهم أن تدفعي فـاتورة شـعوري نحـوك ولـيس المـشروب الذي تقدمينه لي.

ضحكت بصوت عالٍ:

- حسنًا كم تريد مقابل شعورك؟

- أنتِ.

- لكن هذا ثمن باهظ يا عزيزي.. إذا منحتـك نفـسي فمـاذا سيبقى لي لأقنعك بالبقاء؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- ولماذا تظنين أنني سأقرر الرحيل؟

- لأن كل من مروا بحياتي رحلوا يا عاصم.. حتى سئمت من قوافل المهاجرين عني.. لم أعد أطلب حبًّا إلا في زنزانة فردية.. أقفالها بغير مفاتيح.

- يبدو أن وراءكِ قصة كبيرة.

- بل جرح كبير يا عاصم.. صدقني أنت تروقني جدًّا.. أنت مربك تخترق نفسي ببراعة قناص.. وصوتك يحمل لي رسائل حبك.. لكن قلبي مغلق على نفسه يأبى مصافحة المارين بالطريق السريع.

- هل تحبين أحدهم يا سارة؟!

ردت بصوت خفيض:

- نعم يا عاصم أحب.. أو بمعنى أدق أحببت.. ولا أريد أن أكرر المأساة مرة أخرى.. لا أستطيع أن أمنحك أكثر من عقلي.. أما قلبي فقد ضاعت عذريته قديمًا ولست مؤمنة بامرأة تحب أكثر من مرة.. فهل تقبل بقلب مغسول لكن ما زالت به بقع من عشق قديم؟!

مكتبة عابث الإلكترونية

- إذا كنت صادقة في حبك فسيزيل عشقي كل آثار من مـروا بقلبك.. فقط كوني صادقة مع نفسك.. لا تتقدمي نحوي لكن أيضًا لا تتهربـي.. اتركـي الـريح تحـرك قاربـك كيـف شـاءت واطرحـي المجاديف في عمق البحر.. الحب لا يأتي بقـرار ولا الفـرار أيـضًا.. نحن مسكونون بأقدارنا نفعل مـا يـشاء القـدر ونظـن أننـا نفعـل مـا نشاء!!

- حسنًا.. فليس لك أن تلومني علـى شـيء مـا دمـت تـؤمن بالقضاء.

- هـل هـذه نيـة مـسبقة للفـشل تحـت غطـاء مـن مـبررات القدر؟!

- مـا أطلبـه منـك أن تمنحـي نفـسك حـق التجربـة.. فقـد أحببتك في الظل لثلاث سنوات دون أن تعرفي بوجودي حتـى.. وهـا أنتِ الآن بـين يـدي.. فثقـي بالقـدر وامـشي مغمـضة العيـنين علـى عزفه.. لا أدري لماذا تضعين الحواجز بيننا دائمًا؟

- لأنني لم أعد أحتمل الألم يا عاصم.. ماذا تعرف عني أنت وعن آلامي؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- كل ما أعرفه أنني أحبك ولا يعنيني غير هذا.

- لكن هل تدري ماذا ورائي وأي قصة مررت بها؟

- أخبريني ما قصتك.. شاركيني أمرك كصديق وانسي أن قلبي معلق بين عينيك.

- وهل تؤمن بالصداقة بين رجل وامرأة أيها الشرقي؟ فكما قال حكيم قديم: "ما الحب إلا صداقة اشتعلت فيها النار".

ابتسمتُ:

- فمن يمنحني عود ثقاب لأشعل حريقي الخاص؟

- كم عمرك يا عاصم؟

- أنا في الثلاثين.

- أوه.. أنا أكبرك بثلاث سنوات.. إذًا هذه هي العقبة الأولى بيننا!!

- لا يا عزيزتي.. إذا احتسبنا أنني أحببتك ثلاث سنوات على انفراد هذا سيجعلنا متساويين في العمر.

- يبدو أنه لا مفر منك أيها المشاكس الوسيم.. سأفشيك

مكتبة عابث الإلكترونية

سرّي الذي لم أخبره حتى لأقرب الناس مني.. قبل أن أعمل بالصحافة وكنت عندها في الخامسة والعشرين من عمري تعرفت على رجل كان في الأربعين.. تعرفت عليه في حفل زفاف صديقة.. كانت صديقة!

توطدت علاقتي به سريعًا.. كان رجل أعمال يقضي معظم السنة خارج مصر.. لكنه كان في إجازة لمدة ثلاثة أشهر كنت ألقاه فيها يوميًّا.. لم يكن فارق العمر بيننا يزعجني.. بل كان يغريني به أكثر.. فقد كان مفعمًا برجولته بعيدًا عن طيش الشباب.. فتح أبواب قلبي المغلقة وتسرب حبه في كل خلاياي.. كنت مغرمة به حد الجنون وصارحني هو الآخر بحبه.. وعلى الرغم من علمي بأنه متزوج لكن لم يكن ثمة شيء يمكنه أن يحول بيني وبين حبي الأول.. ولم أكن أهتم لنهاية قصتنا ولا يعنيني أننا نسير في طريق بغير علامات تحدد معالم الطريق.. أعيش معه فوضى الحب وأستمتع بكل لحظة.. تكفيني لحظات تسقط من جدول عمله وأسرته.. أخفيت حبه حتى عن أمي لأنني كنت أعرف أنها سترفض الأمر ولم أكن مستعدة للتضحية به لأجل أي شيء أو أي شخص.. مرت معه الشهور تلو الشهور وقد استقر بمصر من

مكتبة عابث الإلكترونية

أجلي.. وحبه ينمو بداخلي كشجرة لبلاب تتسلق علـى كـل الجـدر والأسوار وتغطي كل مساحاتي الفارغة.. أتماهى وأتلاشـى في دخـان سيجارتـه.. أعشق أنوثتي في لمسة يده.. أغار من عطره الذي يلامـس جسده من دوني وأحقد على رابطة عنقه التي تنام على صـدره بـدلاً مني.. سافر ذات مرة لمتابعة أعماله في لنـدن وطالـت غيبتـه دون أن يتصل بي فكدت أموت ألمًا.. تتصاعد نفسي حسرات ويرتج عقلـي في رأسي من القلق والجنـون.. أدركـت أنـني لا حيـاة لـي مـن دونـه.. جسدي يؤلمني لحرمانه من لمسته.. وجهي تاهت ملامحه لأن عينيه لا تريانه.. كيتيمة وحيدة فقدت زادها في عرض البحر.

وأخيرًا وبعدما أشرفت على الهلاك رجع إلى مـصر معتـذرًا بوجود مشاكل كبيرة شغلته عني.. فقلت له: لـن تبتعـد عـني بعـد اليوم ولن أسمح لك.. غيبتـك أطاحـت بعقلـي وشـوقي لـك هـدَّني.. امنحني حـق الإقامـة معـك في فـراش لتـسكن جـسدي كمـا سـكنت قلبي.. فمن الظلم أن تستعمر روحي وعقلي وتترك جـسدي تنهـشه الرياح ويعصف به الشوق.. قال: ولكن أنت تعلمـين ظـروفي الآن يـا سارة.. صعب جدًّا أن أرتب أمر زواجنا في الوقت الـراهن.. سـيحطم هذا زوجتي المريضة ويشوش على عملي.. فدعيني أجهز لهذا الأمر

مكتبة عابث الإلكترونية

وأعدك أن يكون أقرب مما تتوقعين. فلم أدرِ كيف جاءت جرأتي حين قلت له: ليس من الضروري أن نتزوج فأنت رجلي حتى لو لم نتزوج. لن أترك مصيري بين يدي ورقة مأذون وشاهدين.. سئمت من مطاردة العيون ويقتلني ألا أعانقك في عاصفة اشتهائي لك.. كن معي فقط واملأني بك فلا يمكن أن تطيق المرأة أن تحرم من جسد حبيبها غطاءً لكل أشواقها.. فأنا أهواك بكل كياني.. برد الحرمان منك يبعثر هدوئي فامنحني دفئك.. لا تجعلني أشعر أنني أستجدي وصلك!!

وكان نبيلاً كما رأيته دائمًا فقال: دعينا نتزوج في السر إذًا.. لا يمكن أن أقبل بلقاء غير مشروع مع المرأة الوحيدة التي أحببتها.. فأكبرته أكثر ورفعت كلماته وموقفه مقداره الكبير أكثر وأكثر في نفسي.. تزوجنا سرًّا فصارت الدنيا كلها ملك يميني ولا أكترث لأي من مصائبها.. فهذا حبيبي صار معي يشاركني حلمي وعقلي وجنوني.. ويشاركني فراشي أيضًا.

كنت أقتات من الساعات التي نقضيها سويًّا في شقة مستأجرة.. متعتي أن أجهز له طعامًا بيدي وأضع لقيماته في فمه

مكتبة عابث الإلكترونية

بيدي وأغسل يديه بيدي.. أقول له: لا يملك حق التصرف فيك أحد سـواي.. أنـت ملكـي وحـدي وعالـمك مملكـتي.. أراقبـه وهـو نـائم بجواري حتى لا تضيع لحظة دون أن أعتـصر الحـب فيهـا عـصرًا.. وكان يحرص على الاتصال بي كل يوم أكثر من مـرة عنـدما لا يـأتي إلى شقتنا.. وعلى الرغم من غيرتي وألمي من غيابه لكن كنت مستعدة لتحمل نتائج اختياري وقـراري.. فـأحبس ألـمي في صـدري حتـى لا أنقـل لـه حزنـي.. أمنحـه الحـب والـسعادة.. أشـاركه فـرحتي وأشواقي.. أما ألمي فكـان مـن نـصيبي وحـدي.. حتـى تحـرك حبـه بداخلي ونسج الشوق طفلاً بأحشائي.. لم أكن أتوقـع حـدوث هـذا.. لكنه حدث على أي حال دون ترتيب أو قصد.. وعندما أخبرتـه أنني أحمل طفله في أحشائي ضمني إليه معلنًا عن سعادته بأن يربط بيننا طفل لتزداد الجسور.. أصبح أكثـر اهتمامًـا بـي.. وعنـدما ناقـشته: كيف سأواجه أمي وأسرتي والنـاس بهـذا الـذي ينمـو في أحـشائي؟ قال: لا تهـتمي يا حبيبتي سنعلن زواجنا في أقرب فرصة.. لن أدعك وحدك في مواجهـه الإعـصار.. وضـمني لـصدره ليـدفن كـل مخـاوفي ويمحو كل ما سطرته يد الخوف في نفسي.

مكتبة عابث الإلكترونية

- ماذا كان اسمه يا سارة؟

- لا داعي للأسماء.. فبعض المارين بحياتنا يتركون ندبات وجراحًا تغني عن ذكر أسمائهم.

- هل أعرفه؟!

- لا أظن.. لكن اعفني من ذكر اسمه.. بعض النهايات تبقى بلا خاتمة.. إنها قوس مفتوح على عاصفة الجراح لا تكف أنواء الألم عن العصف بكل وجودنا.. لا أدري لماذا أخبرتك بما لم يعرفه غيرك يومًا.. ربما لأنني غير مستعدة لتكرار المأساة.. ربما لأنني أراك حلمًا جميلاً لا أريد له يقظة مفزعة!! هل ترضى بأن أظل صديقتك يا عاصم.. صديقتك فقط؟

- يرضيني يا سارة أن تكوني بجواري مهما اختلفت المسميات.. فأنا مشبع بحبك.. حتى إنني كثيرًا ما أتجاهل موقفك تجاهي مكتفيًا بما أحسه نحوك.

- عاصم.. أرجوك لا تترك الجريدة.. أريدك أن تشاركني أي شيء حتى لو كان رابطة العمل فقط.

- صدقيني لن أحترم نفسي إذا تراجعت في قراري.. صعب

مكتبة عابث الإلكترونية

جدًّا أن نشعر بفقدان مبادئنا.. لا سيَّما حينما لا نملك غيرها.

- حسنًا.. لن أضغط عليك.. لكن فقط عدني بأنك ستفكر في الأمر.

- أعدك بهذا.

انتهى لقاؤنا بعدما باحت لي سارة بسرها الذي أشعل الحرائق في نفسي وأنا لا أدري هل أمتلك حق الغيرة عليها أم أنه من الظلم أن أحاكمها على ماضٍ لم أكن شاهدًا عليه ولا طرفًا فيه. لماذا نشعر بأننا نمتلك حق تقرير التاريخ مع من نحب؟ لماذا نركب آلة الزمن لنغزو الماضي ونرغب في إعادة كتابته على الرغم من أننا لا نمتلك أكثر من مطالعته؟!

وهل ما زال يسكنك حب هذا الذي حجبت اسمه عني يا سارة؟ أي نوع من الرجال كان؟ هل كان وسيمًا جدًّا؟ كيف كانت نبرة صوته ومذاق أنامله؟ أين طبع قبلاته على جسدك؟ أي ألم وأي مصير قررت لي أيها القدر؟ لماذا هي من دون النساء؟! تركت عذرية علياء وقلبها البكر وجسدها الخام لأحب امرأة مربوطة بحبال رجل غائب.. هل حان لي أن أنسحب من قصة بطلها رجل

مكتبة عابث الإلكترونية

آخر.. رجل غائب يسحق حلمي من خلف أستار الغيب.. وأن أترك مدائن شيَّدها غيري.. أم أظل أقيم كغريب يستريح ليلة ليواصل عناء السفر ووحشة الطريق إلى المجهول؟!

عدت لأمي لتشكو لي مشاكلها اليومية وهي غاضبة لندرة أنابيب الغاز وغلاء الأسعار قائلة: "هذا من ذنوبنا.. لو كنا أناسًا صالحين لجعل الله مَن يحكمنا رجلاً صالحاً.. لكننا لا نستحق إلا هذا".

ما أعجب شعوبنا التي يجلد فيها البسطاء ذواتهم ويحمِّلون أنفسهم جرائم الجلادين وينصبون من قهرهم سببًا لذلهم ويغسلون يد الجناة بماء الإيمان ومنظفات القدر! نحن أمة تصف نفسها بالمذنبة العاصية حتى لا تمارس حق الاعتراض ولا تنطق "لا".. هل فعلاً من أعمالنا سُلِّط علينا أم من صمتنا؟! من الجاني: القضاء أم الاستسلام؟!

وطالبتني بإقناع أحمد بالزواج حتى يخرج من حالته: لا يمكن أن يظل هكذا يا عاصم.. الزواج سيلهيه وينسيه يا بني.. وقد تعبت من إقناعه.. كلما فاتحته في هذا نهرني وقال: اتركيني

مكتبة عابث الإلكترونية

وشأني.

كان أحمد يعامل أمي بقسوة في الفترة الأخيرة وكلنا يحتمل غضبه ولا نحب أن نزعجه بشيء.. وعندما قلت له: لماذا لا تفكر في البحث عن عمل يا أحمد فأنت محاسب ماهر؟ قال لي: عندما أطلب منك أن تعطيني مالاً طالبني بالعمل. كانت حساسيته المفرطة تجعلني أفكر ألف مرة قبل أن أحدثه في شيء.. لم أعد أدري كيف أوزع اهتمامي.. بأخي الذي يشعرني بأنه غريب بيننا.. أم بأمي التي تحمِّلني كل مشاكلها.. أم بسارة التي لا أعرف بداية ولا نهاية لأمري معها! كل يوم يمر تزداد همومي وتنسج المشاكل حولي خيوط العنكبوت الكئيبة وأنا أنتظر أن تهب نسائم الأمل لتعصف بنسج العناكب.. لكن هذا ليس زمن النسائم!!

أصبحت سارة تتصل بي بشكل شبه يومي وتكررت لقاءاتنا وأحسست أنها صارت قريبة جدًّا مني.. ولست أدري هل هذا لأجلي وقناعتها بي أم لأنني صرت خزانة أسرارها فلا شيء أثقل على نفوسنا من تحمل الأسرار.. كثيرًا ما نفضل البوح ونغامر بالفضيحة على أن نكابد مشقة احتمال خيباتنا السرية وقصصنا

مكتبة عابث الإلكترونية

المبتورة.. حاجتها لي كانت مثل حاجتي لصديقي الوحيد محمد اليماني الذي ألقي بكل همومي وأسراري بين يديه.. لكن محمد أصبح متحفظًا جدًّا معي في الفترة الأخيرة.. دائمًا يسمع ولا يتكلم.. ولا أعرف سببًا لتغيره.. هل يعتب عليَّ في أمر علياء؟ وهل يحق له أن يحاسبني على حب لم أشعر به يومًا؟ ترى أي شيء غيَّرك يا صديقي؟

اتصلت به لأقابله فلم يرد على اتصالي.. ثم ذهبت إلى المقهى فصادفته هناك. وعندما سألته: لماذا لا تتصل بي ولا ترد على اتصالاتي؟ أكد أن هاتفه المحمول كان بعيدًا عنه أو نسيه.. فقلت: لا عليك يا صديقي.. ولكن ما هذه الوجاهة؟ أراك متأنقًا للغاية.. أي سر وراءك؟

- لا شيء.. إنه فقط عيد ميلاد علياء وقد دعتني للاحتفال معها.

لا أدري لماذا شعرت بتغير عندما قال لي هذا وصار صوتي مبحوحًا وسألته:

- وهل أحضرت لها هدية أم لا؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- في الحقيقة لم أفكر في هذا.. لتأتِ معي لنختار هدية مناسبة.

ذهبنا سويًّا لشراء هدية مولدها.. اخترت له بيدي خاتمًا مميزًا وأنا أشعر أنني أقدم له ما يربطه بعلياء من بعدي.. وقبل أن يذهب قلت له:

- لا تنسَ أن تحمل معك باقة من الزهور.. فعلياء لم تحب في حياتها شيئًا أكثر من الزهور.

فتبسم:

- أنت أدرى بها مني ولا شك.. وسأعمل بنصيحتك.

ذهب محمد وأنا أتساءل: هل من حقي أن أغار على حب رفضته؟ وهل تصير المرأة التي أحبتنا وقفًا علينا وحكرًا لا يحق لأحد أن يقترب منها؟ ما زالت عنصريتنا الشرقية تتحرك بداخلنا وننظر إلى النساء كأحد أمتعتنا التي نرفض أن يشاركنا بها أحد حتى بعد رحيلنا.. وتردد السؤال الذي لم يتوقف بداخلي يومًا: هل فعلت الصواب بتركها أم أنني ارتكبت أعظم حماقاتي؟ ومع ذلك كان يسعدني اقترابهما من بعض على الرغم من أنني كنت

مكتبة عابث الإلكترونية

مشفقًا على علاقتي بمحمد.. فليس أصعب من أن يكون لك صديق أحبتك فتاته من قبله.

مرت شهور كثيرة على انفصالي عن علياء.. تراها قد نسيت حبي وشفيت من جرحي؟ وهل محمد هو الدواء الذي سيزيل أثري من عروقها؟ كم مرة قابلها؟ وأي من الحوارات دارت بينهما؟ وهل نظرت إليه بذات النظرة الحانية التي كانت تنظر لي بها؟ وهل ستمنحني سارة ما خسرته في علياء أم أن زمن التعويض قد ولى وانتهى؟!

أصبح محمد يحدثني كثيرًا عنها ولا يذكر علاقتي السابقة بها ويتحاشى ذلك وكأنه لم يعرف أن علياء عاشت من أجلي سنوات.. هل من السهل أن تمحو إنسانًا بمجرد اتخاذ قرار؟ وهل سيتعايش محمد مع الأمر ويفصل بين صداقتنا وعلاقته الوليدة بعلياء؟ سنرى يا صديقي أي نوع من الرجال أنت!!

كم تكون خسائرنا عظيمة حين نفقد صديقًا نثق به.. فالصديق هو قصة حب من نوع مختلف.. هو مرآة نرى بها وجوهنا بغير مساحيق الزيف.. ونتعرى أمامها من دون خجل.. نبوح له

مكتبة عابث الإلكترونية

بأسرارنا فنتخلص من وخز الجراح.. إذا خسرتك يا محمد فلمن سأشكو عنائي: لأخي الذي أصبح زاهدًا في الحياة أم لأمي المشغولة دائمًا بمتاعب البيت وحال أبنائها؟ أرجوك يا محمد خذ علياء ولا تسلبني حق الصداقة.. فقد شبعت من الخسائر ولم أعد أحتمل المزيد.

عدت إلى المقهى حاملاً أوراقي وقلمي لأبث السطور أشجاني لأجعل من الصفحة البيضاء صديقًا صامتًا.. يستمع لي ويسير دائمًا في اتجاهي.. فعندما نكتب نخرج عن ذواتنا ونرى أنفسنا بعين القلم. مقهى "التركي" كان دائمًا الركن الذي أستريح به لأخلو بنفسي فأكتب حتى أفرغ حمل صدري المثقل.. أنظر لوجوه الناس من حولي لأقرأ هموم الوطن الذي رسم الحزن على عيون أبنائه.. لم تكن تخدعني ضحكاتهم العالية لأنها كانت دليل هزيمتهم النفسية.. فهذا الشعب له طقوسه الخاصة في ممارسة الألم.. فكلما اشتد قهره أطلق نكاته كرصاصات على صدر من يعذبونه.. النكات هي سياسة هذا الشعب منذ القدم.. يسخر فيها ممن يستعبدونه.. يعلن أن رقصهم المبتذل لا ينطلي عليه وأن وعودهم الزائفة لا

مكتبة عابث الإلكترونية

تخدعه.. النظام يقتلنا بقراراته السياسية الجائرة فنرد عليه بقرارات النكات اللاذعة.. هذه بتلك.. إنها نوع من المخدرات التي ننسى بها همومنا!!

ما زال المقهى يضج من حولي.. المقهى هو وطن مصغر أجد به كل أطياف مصر.. آلامها وأحزانها.. صمتها المطبق وثورتها المحتقنة.. صوت الرفض وصوت النفاق.. كثيرًا ما كنت أجالس صديقنا "حسن" المحامي الذي تتقلب به الأحوال دائمًا.. فتارة يرفل في ثوب الغنى وكثيرًا ما يعض أصابع الفقر.. كان يدخن النرجيلة بشراهة وينفق فيها أكثر من دخله وقدراته المادية حتى أصبح له "حساب على النوتة".. فهو كثيرًا ما يأتي دون أن يدفع الحساب.. وساعتها يتحرش به العاملون الذين يجدونها فرصة لإخراج حقدهم.. فيتعمدون إساءة الخدمة وهو لا يمتلك حق الاعتراض لأنه يعلم جيدًا أنه لن يدفع ما يخرسهم به.. ومع الوقت أصبح أسامة يناديه باسمه مجردًا بعدما كان لا يناديه إلا بلقبه "أستاذ حسن" أو "حسن بيه".. لقد سقطت هالة الحماية التي تمنح المرء احترامه في هذا الوطن.. فقيمتك لا تتحدد إلا بمقدار ما تدفعه

مكتبة عابث الإلكترونية

من بقشيش والسيارة التي تركبها والملابس التي ترتديها.. أما الإنسان نفسه فليذهب للجحيم! حسن يشكو لي دائمًا بمقولته المريرة: "ولاد الناس اتبهدلوا".. وأنا أنصحه أن يخفف من جلوسه بالمقهى حتى تقل نفقته فيرد:

- وهل سأجلس في البيت بجوار زوجتي أنظف المطبخ؟ الجلوس في البيت يقتلني.

- لكن الجلوس في المقهى يقتل كرامتك!

فيرد ليتخلص من المعادلة الصعبة التي وضعته بها:

- "ربك هيفرجها".

على العكس منه كان "مرتضى" الذي يعمل بالمحاماة أيضًا.. فقد كان حسن شخصًا نبيلاً عندما تنفرج أزمته يغدق بالبقشيش على كل من يعملون بالمقهى حتى يسترد كرامته السليبة أو حتى يشتريها بمعنى أدق.. وساعتها تعود له ألقابه التي فقدها. أما مرتضى فكان مثالاً للمحامي الفاسد.. والجميع يعلم أنه كاذب يمارس النصب على من يقابله.. لكن جيبه لا يخلو من المال.. ولذلك كانت ضحكته أعلى صوتًا ولا يتردد في إهانة الجميع..

مكتبة عابث الإلكترونية

فينادي النادل: أحضر لي كوبًا من الشاي يا ابن القحبـة.. والنـادل يبتسم كأنما استمع إلى نكتة ظريفة فلا بأس بسبِّ الأمهـات مـا دام المقابـل مجزيًـا!! كـان مرتـضى يتمـادى في إذلال العـاملين الـذين يحرصون على نظافة المكان بينما يتعمد هو إلقاء سجائره بعيدًا عـن المنفضة والبـصق فـوق الأرض بوقاحـة. وكـثيرًا مـا يـأتي إليـه أحـد أصدقائنا من الشباب يشكو عدم قدرته على الالتحاق بعمل أو وظيفة جيدة.. فيتبسم له كأنما ظفر بـصيد سمـين: "لا تحمـل همًّـا.. قبـل نهاية الشهر سأجعلك تلتحق بشركة بترول أو شـركة أدويـة عـلى الأقل وبمرتب خيالي".. هذا ما حدث مع صديقنا "محمد الـسيد".. ذاك الشاب الذي بلغ الثلاثين وهو ينتقـل مـن وظيفـة لأخـرى وهـو حاصل على البكالوريوس في العلوم.. فأخذ مرتضى منه خمسة آلاف جنيه ووعده أن يتوسط له في شركة بـترول.. ومـرت شـهور دون أن يفي بما وعد.. وبعد مماطلات كـثيرة اسـترد محمـد مالـه.. ولكـن عادت إليه المشكلة نفسها.. فما زال يعاني البطالة.. فلم يجد أمامـه إلا مرتضى مرة أخرى.. وعلى الرغم من تحذيري له حتـى لا يكـرر الخطأ نفسه.. لكـن ضـغط البطالـة وهـوان الفـراغ والـشعور باليـأس

مكتبة عابث الإلكترونية

والإحباط.. كل هذا كـان كفـيلاً بمحـو صـوت العقـل.. فلـيس شـيء أصعب من أن يمكث الشاب ببيته بلا عمل عالة على أبيه الذي كـان يحلم أن يشاركه ابنـه أعبـاء الحيـاة فـإذا بـه يـصبح عبئًـا جديـدًا. وكالعـادة لا يفـي مرتـضى بوعـده.. فيلجـأ محمـد إلى "عـلاء" أمـين الشرطة الذي يأتي للمقهى يشاركنا لعبة الشطرنج.. كان علاء كريم الخلـق ويبـدو رجـلاً شـريفًا علـى عكـس الـصورة النمطيـة لرجـال الشرطة في مصر؛ حيث أصبح الناس لا يرون في رجالهـا إلا لـصوصًا بملابس رسميـة.. فرجـال المـرور لا عمـل لهـم إلا ابتـزاز أصحاب السيارات الملاكي وفرض الإتـاوات علـى سـائقي سـيارات الأجـرة.. وإذا قادك حظك العاثر إلى قسم شرطة في أي قـضية فعليـك أن تغـدق على كل من بالقسم حتى تحفظ شيئًا مـن إنـسانيتك.. وإلا أذاقـوك سوء العذاب.. وخلُّوا بينك وبين المساجين المحترفين الذين يفرضون عالمهم داخل الزنزانة ويقيمون قوانينهم الخاصة.. فلكي تنام داخل الزنزانة عليك أن تدفع لكبير المحبوسين داخلها حتى تحصل على مقدار نصف متر لتنام فيه.. وإذا شئت مساحة أكبر فعليك أن تدفع أكثر.

مكتبة عابث الإلكترونية

علاء لم يكن من هذا الصنف.. فعلى الرغم من أن عمله كان كفيلاً بأن يضمن له ثراءً سريعًا لكنه كان دائمًا يردد قوله: "أبويا رباني بالحلال ومش عايز أربي ولادي من الحرام".. فأتعجب لوجود رجل مثله.. فالحصول على شرطي شريف أصعب من الحصول على وزير نظيف بالحكومة. فكان علاء يمثل آلة الترهيب والضغط التي يستخدمها محمد حتى يسترد حقوقه من مرتضى.

وبجوار كل هؤلاء يأتي "عم بخيت" المسئول الأول عن تقديم المشروبات للزبائن.. كان رجلاً في منتصف الخمسينات من عمره لكن هيئته تخبر عن رجل جاوز الستين نظرًا لشعره الأبيض الخفيف وفمه المظلم لخلوه من الأسنان.. رجل لزج قبيح اللسان لا يكف عن إلقاء النكات الجنسية ووصفه لكل طاقم العمل الذي معه بأنهم شواذ.. كان جيبه لا يخلو من أنواع المخدرات والمنشطات الجنسية على الرغم من أن زوجته توفيت من سنين.. بخيت كان أخبثهم نفسًا.. دائمًا يغالي في أسعار المشروبات ويحاول أن يبتز زبائنه بنعومة وقحة.. نظراته حاقدة.. يشعر أن كل من حوله لا يستحقون إلا معاملته السيئة.. وفي لحظات صراحته يؤكد أنه يكره

مكتبة عابث الإلكترونية

الناس جميعًا لأنهم أشرار وليس هناك أمان لإنسان.. كانت قناعتي دائمًا بأن أكثر الناس شرًّا هو من يرى العالم خاليًا من الخير.. عقدة الإسقاط تسيطر عليهم دائمًا.. يسرقون الآخرين ويتعللون بأنهم يستحقون هذا لأنهم لصوص.. ومع ذلك كان بخيت يخضع دائمًا أمام الدكتور "عزيز".. ذلك المليونير غريب الأطوار الذي دائمًا ما يطلب مشروب "القرفة" ولا يشربه أبدًا.. وعندما سألته ذات مرة: أراك تطلب القرفة في كل مرة ولا تشربها أبدًا.. فيجيبني: أطلبها لأن الطبيب نصحني بشربها كعلاج للكبد.. فأقول له: فلماذا لا تشربها إذًا؟ فيقول: لأنني لا أحبها!!

كنت أتعجب من منطقه الغريب.. فهو ينفذ الشطر الأول فقط من نصيحة الطبيب ثم يفعل ما يناسبه هو في الشطر الثاني.. كان الدكتور عزيز الذي لم أعرف يومًا أي نوع من الدكتوراه تلك التي حصل عليها رجلاً متغير الحالات بشكل مدهش.. تراه أحيانًا يترك بقشيشًا يساوي ضعف مشروباته وأحيانًا أخرى يحاسبهم بالقطارة فلا يترك لهم قرشًا واحدًا.. لا يهتم أبدًا لهيئته فيبدو بشعره الأبيض الخشن مشعثًا دائمًا وذقنه مجذر وثيابه بغير كيٍّ..

مكتبة عابث الإلكترونية

يلبس حذاءه من دون جوارب يدخل به نصف قدميه ويخرج كعبيه كأنما يقول للدنيا: أنت نعل لا أنتمي إليك ولا أخلعك أيضًا.. أشبه بشخص يعاني مشاكل نفسية.. ومع ذلك يحمل دائمًا أحدث الهواتف المحمولة التي كثيرًا ما ينساها حيث كان أو تسرق منه.. عزيز كان يمثل "بنك" المقهى الذي يقوم بإقراض كل من يطلب منه دون ضمانات ولا فوائد.. ربما يقرضك عشرة آلاف جنيه دون أن تطلب منه لمجرد أنه لاحظ أنك تعاني ضائقة وهو يقسم بأغلظ الأيمان إنه في غنى عن المبلغ بل ولا يريد حتى أن ترده إليه.. ثم يأتي في اليوم التالي مباشرة يطالبك برد الدين ويشرد بك أمام الجميع!! كانت تقلباته الحادة تجعلني أعامله بحذر دائمًا.. فلا أتحدث معه إلا قليلاً على الرغم من محاولاته الدائمة لمعرفة أخباري.. عزيز كان زبون "بخيت" المفضل.. فعندما نلعب الشطرنج سويًّا يأتي بخيت بصوته الرفيع مؤكدًا أن الفوز للدكتور عزيز.. ولا يكف عن ضحكه الوقح وصوته المقزز إلا عندما أرميه بنظرة ثاقبة يعلم منها أنه تجاوز حدوده معي.. فينكمش بخزيه بعيدًا ينتظر أن يمنحه عزيز أجر نفاقه وتملقه.

مكتبة عابث الإلكترونية

أما الحاج "طلبة" تاجر الحلوى فكان رجلاً جاوز السبعين لكنه بصحة جيدة.. كان يحبني جدًّا ودائمًا يناقشني في حال البلد ويردد كلمته المكررة: "دي بلد الكبار والصغار ياكلوا بعض.. يا تاكلهم يا ياكلوك".. يحدثني عن عهد ناصر وكيف كان الشعب مخدوعًا فيه ويترحم على زمن الملكية.. ولذلك كان لا يتفق أبدًا مع الحاج "ناصف".. يلعن الساسة والوضع ويشكو لي كساد تجارته.. وكالعادة يتشاجر معه بخيت لأنه يمكث بالساعات دون أن يطلب مشروبًا واحدًا.. ويؤكد لي: "خسارة فيهم.. اللي يعوزه البيت يحرم علي القهوة".. فكنت أضحك وأقول له: لكن المثل يقول: "يحرم على الجامع".. فيرد بسخريته المعهودة: "أصل أنا كده كده ما بدخلش الجامع".

كان الحاج طلبة يخفف من حدة افتقادي لمحمد على الرغم من أنني كثيرًا ما كنت أنزعج من أحاديثه المكررة.. فعندما يبلغ الإنسان أرذل العمر يفقد القدرة على الشعور بمن يستمع إليه ولا يشعر بمدى ضجره من أحاديثه المملولة.. لكن كان عليَّ أن أحتمل حديثه من باب الذوق وأيضا لأنني أصبحت أكره الانفراد بنفسي.

مكتبة عابث الإلكترونية

بين كل هؤلاء الأفراد الذين تتمايز شخصياتهم وتختلف طبائعهم كنت أراقب الجميع بعين طائر يرى رقعة اللعبة من أعلى نقطة دون أن يشارك فيها.. فقط أشاهد كمن يجلس بمسرح للعرائس ترقص وتغني دون إرادة منها.. إنما تهتز مرغمة تحت أصابع ذاك الذي يقف بالأعلى قابضًا على كل الخيوط.. أشاهد.. وأشاهد فقط.

أخيرًا انتهى محمد من لقائه علياء وعاد للمقهى.. كنت متلهفًا لمعرفة شعوره وأخشى أن أرى التماعة الحب في عينيه على الرغم من قناعتي بأن هذا هو الوضع المثالي كأفضل تعويض لعلياء عن جرحي لها.. وأيضًا لأن "محمد" كان يحتاج مثل هذا الحب.. لكن نحن لا نستطيع أن نكون على الحياد من أنفسنا.. دائمًا وكثيرًا ما نفقد القدرة على السيطرة على رغبة الامتلاك وحق تقرير مصائر الآخرين.. سألته:

– هل أعجبتها هديتك؟

– طبعًا.. فمن أدرى منك بذوقها؟ لكن كانت سعادتها أكبر بالزهور.. كان لها تأثير ساحر عليها. إن فتاة تعشق الزهور هي فتاة لا ترى في الدنيا إلا أروع ما فيها.. فنحن نشبه الأشياء التي

مكتبة عابث الإلكترونية

نحبها دائمًا.. فمن يحبون المال يشبهونه في توحشه وسرعة زواله.. ومن يحبون الاقتناء لا يتعدون كونهم خزائن تحوي الثمين وما هي إلا قطعة من الحديد بغير شعور.. أما أولئك الذين يحبون الزهور فلديهم قدرة على منح السعادة والحياة لغيرهم.. لكن أعمار بهجتهم كأعمار الزهور تكون قصيرة دائمًا.

فقلت له:

- صدقت يا محمد.. لكن أظن أن عمر بهجة علياء سيطول وهي بجوارك.

تجهم وجهه:

- ماذا تقصد؟!

- أنا أرى اقترابك من علياء وهذا لا يزعجني.. فليست ثقتي بأحد كعلياء إلا ثقتي بك.. اترك الحب يتخللك.. لا توصد أبوابك في وجهه.. صدقني الحب لا يطرق أبوابنا إلا كنسائم الصيف لا تدري من أي الاتجاهات سيأتي وعليك أن تشرع نوافذك له.

- لكن أنت تعلم يا عاصم أنها تحبك.

مكتبة عابث الإلكترونية

- الحب ككل الأشياء في حياتنا يا محمد يمكن أن يقوى ويمكن أن يزول أيضًا.. أخبرني ماذا شعورك نحوها؟

- لا أنكر أنني أكون سعيدًا جدًّا وأنا معها.. لكن لم أفكر فيما تقول.

- ليس من الضروري أن تفكر بعقلك.. بعض الأشياء إذا خضعت للعقل فسدت وانتهى أمرها.. فالحب شيء من الجنون وإذا قررت أن تعقل فيه خسرت حبك.. علينا أحيانًا أن نختار أن نربح عقولنا أو قلوبنا.. فلا يمكن أن نرضيهما معًا.

فتبسم:

- شخصيًّا أفضل أن أربح قلبي.. فما القيمة أن نحيا مثل الآلات والحواسيب؟ سينتهي أمرنا بمجرد فصل التيار الكهربي ولست أحمل بطارية احتياطية.. لكن القلب كالشمس طاقته قد تغيب أحيانًا لكنها لا تنفد أبدًا.. لكن أنا لا أعرف شعور علياء ولا يمكنني أن أدفعها في اتجاهي أو أستغل ظرفها الراهن.. ولا أقبل أن تقترب نحوي لأنني فقط الرجل الوحيد المتاح.

- أحترم وجهة نظرك.. لكن أنت جدير بأن تحبك أي

مكتبة عابث الإلكترونية

فتاة.. أنت شخص نبيل يا محمد وتستحق حبًّا بحجم نقاء قلبك.

– لتكن مشيئة الله يا عاصم.

– نعم لتكن مشيئة الله يا صديقي.. لكن أرجوك يا محمد.. أرجوك أن تتفهم أمرًا مهمًّا.. نحن صديقان وعلياء لم تعد بالنسبة لي أكثر من أخت.. فمهما حدث بينكما لا تجعل شيئًا يؤثر على صداقتنا.

– لماذا تقول هذا يا عاصم؟ أنت صديقي الأقرب بل والأوحد وليس هناك ما يمكن أن يفصل بيني وبينك.

– أتمنى.. أتمنى..

فسألني:

– ما رأيك لو جئت معي الأسبوع المقبل إلى نقابة المحامين؟

– لماذا؟

– ستكون هناك مظاهرة لحركة "كفاية" وأريدك أن تكون معي.

فضحكت:

مكتبة عابث الإلكترونية

– منذ متى وأنت تهتم بالسياسة؟ ما عرفتك إلا تاجرًا ماهرًا ولاعب شطرنج.

فأطرق:

– وهل إذا ابتعدنا عن السياسة ستبتعد هي عنا؟ حتى متى سنترك للآخرين تقرير مصائرنا ومستقبلنا؟ لا بد أن نشارك في صنع مستقبل لهذا الوطن ولأنفسنا معه.

– صدقني ستشعر براحة عجيبة حين تأتي لتعلن عن غضبك.. فليس أقبح من الصمت وأنت تمتلك حق الصراخ.

– لكن أخشى أن يكون الأمر مجرد صراخ يا محمد.

– هي بداية فقط.. وبعد الصراخ ستتحرك العاصفة.. فتعالَ وشارك معنا.. أنا عضو بالحركة ويمكن أن تصبح أنت أيضًا عضوًا بها.

– سآتي معك.. لكن أمر العضوية لا أظن أنه سيحدث.. فأنا أنتمي لحزب أنا كل أعضائه.. أنا من يحدد القرارات وأنا من يعارضها أيضًا. على أي حال اتصل بي قبلها لتذكرني فأنا دائم النسيان كما تعلم ولا أحب أن تظن أنك أكثر وطنية مني فكما أسبقك

مكتبة عابث الإلكترونية

في الشطرنج سأسبقك في حب هذا الوطن.

– أنت فعلاً تسبقني في الحب.. أقصد حب الوطن!!

الأسبوع مرَّ سريعًا.. وكعادة الأيام في حياتي صارت متشابهة.. لا يشغلني شيء أكثر من سارة وأخي الذي أصبحت قلقًا عليه غاية القلق.. ففي كل يوم تزداد عزلته وتسوء حالته النفسية وأنا أقف عاجزًا عن إعادته لدائرة الحياة.. أعرف أن ما لاقاه كان مهولاً.. لكن لم أستطع أن أقنعه أن دائرة الحياة لا تنتهي وأن الأحوال يمكن أن تتبدل.

وعرضت على أحمد فكرة حضور المظاهرة معنا وكان رده كما توقعت.. أكد أنه لا يهتم بهذا الوطن ولا يعنيه أن يتقدم أو يتأخر وهو يقول:

– لولا جحود وطننا لما ذقت هوان الغربة وذل الغرباء.. ولو أنني وجدت الحياة الكريمة في بلدي وبين أهلي ما الذي كان سيضطرني أن أذهب لبلاد غريبة عني ينظرون لنا كنوع من الخدم.. أغراهم ثراؤهم وفقرنا بأن يستذلونا.. يشعرون بعقدة النقص نحونا.. يزعجهم أن عقولنا أكثر تفتحًا وأننا نملك من القدرات ما

مكتبة عابث الإلكترونية

لا يمتلكون فيزيدهم هذا توحشًا في إرهاقنا بقدر استطاعتهم.. إذا ذهبنا لبلادهم أذلونا وإذا جاءوا لبلدنا أهانونا.. نحن من قدمنا لهم تلك الفرصة وانسحقنا أمام بترولهم وثرواتهم؟!

- يا أخي ليس كل العرب كمن قابلت.. كل بلد به الحسن والسيئ.. شخصيًّا لي أصدقاء خليجيون يعيشون بمصر لم أرَهم بهذا القبح يومًا.. ولا تنسَ أن هناك كثيرًا من المشاريع في مصر كانت بتمويل عربي.. سواء مدينة "الشيخ زايد" أو غيرها.. ناهيك عن دور أثرياء الخليج في مساعدة الجاليات العربية والإسلامية في أوروبا.. فكل المشاريع هناك تقوم على التمويل المقبل من الخليج بالأساس سواء من السعودية أو الكويت أو الإمارات أو غيرها.

- لكني لم أرَ إلا الوجه القبيح.. لن أترك قناعاتي التي عرفتها بتجربتي من أجل كلامك الذي تتخيله.. ماذا عرفت أنت يا عاصم؟ أنت منذ وُلدت تنام ببيت أمك تدللك.. أي من أهوال الدنيا قاسيت حتى تتكلم؟ أنت تحلم على فراش دافئ فاذهب وتظاهر عن وطنك.. أما أنا فلا وطن لي.

لم أكن من ذلك النوع الذي يستسلم سريعًا فألححت عليه

مكتبة عابث الإلكترونية

بالحضور من باب تغيير جو غرفته على الأقل.. وحتى يتخلص مني قال:

- سأفكر.. عندما يأتي وقتها أخبرني.. لكن من فضلك اتركني الآن فأنا مرهق.

في اليوم التالي اتصل بي محمد ليذكرني بموعد المظاهرة في صباح الغد.. وأنه سيمر عليَّ بالمنزل ليصطحبني.. فأخبرته أنني ربما آخذ أخي أحمد معي وأكدت عليه ألا يناقشه في شيء من أمر سفره؛ لأن هذا الموضوع يزعجه للغاية.. فقال: ليس من عاداتي أن أتحدث فيما لا يعنيني يا عاصم.. كن جاهزًا عند العاشرة صباحًا لنمضي سريعًا.

جاء محمد في صباح اليوم التالي.. وأقتنع أحمد بالذهاب معنا دون كثير مناقشة.. ربما أراد أن يشاهد ما نفعل ليقنع نفسه بأنه على صواب.. وأنه لا جدوى من مظاهرات ولا غيرها.. فعندما يفقد الإنسان الثقة بكل شيء يبحث دائمًا عن مبررات تقوي قناعته.

لم أحضر مظاهرة منذ أن كنت في الجامعة.. عندما قامت

مكتبة عابث الإلكترونية

الانتفاضة الفلسطينية الثانية بعد أن قام شارون باقتحام المسجد الأقصى.. فخرجت مع جموع الطلاب المطالبين بطرد السفير الإسرائيلي وسحب السفير المصري من تل أبيب.. ولكن ليست الأنظمة على اقتناع برؤية الشعوب.. فالوطن ينبح والنظام يسير.. هكذا يعاملوننا دائمًا!!

وصلنا لموقع المظاهرة.. كان معظمهم بين العشرين والثلاثين.. كنت سعيدًا بأن أرى شباب الوطن أصبح مهتمًا بشئونه.. مطالبًا بحقوقه.. مئات اللافتات التي تحمل كلمة "كفاية".. كانت الحركة اعتراضًا على كل شيء.. بدءًا من فكرة التوريث التي أصبحت تفرض نفسها بقوة كعدوى انتقلت من سوريا إلى مصر حيث انقلبت الثورات على ذاتها في مسرحية هزلية تدعو للضحك الدامي.. فبعد أن أشبعونا بأغانيهم "يوم ما أخرجنا الفساد يوم ما حررنا البلاد" يمنُّون علينا بأنهم حررونا من أسر الملكية ومنحونا جمهورية بمذاق الذل تخرس فيها كل الألسنة ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة.. نعم معارك العار.. فلم نشهد لهم إلا الهزائم.. ضاعت الجولان وسقطت سيناء ومُزقت القدس وتم اجتياح

مكتبة عابث الإلكترونية

بيروت.. أصبح جسد أمتنا متاعًا مباحًا للعدو يفعل فيه ما يشاء.. وما زالوا يرددون زيفهم ويسحرون أعيننا بالعروبة والقومية العربية.. في كل يوم انقلاب يسمونه ثورة.. وسطو مسلح يسمونه تحريرًا.. ومات الملك عاش الرئيس.. وهاهم اليوم ينقلبون على أنفسهم ويعيدونها ملكية في ثوب جديد ألوانه أشد قبحًا.. ومذاقه أقسى مرارة والأمة تسير كقطيع ترضى بأي راعٍ ما دام يمسك بالعصا الغليظة.

لفت نظري عدد الفتيات الكبير.. كانت المظاهرة فرصة للغضب وفرصة للتعارف بين المتظاهرين أيضًا!! وبعد دقائق من تجمعنا كانت هناك عشرات من المصفحات ومئات الجنود يحيطون بنا (جنود الأمن المركزي) وجوههم تخبر عن شقاء القرى التي جلبوهم منها.. بسطاء لا يعرفون أكثر من إطاعة الأوامر بحذافيرها.. لا يعرفون لماذا نتظاهر ولا يدركون لماذا هم هنا.. كانت عيونهم تخبر عن جوع للكرامة وجوع للجنس أيضًا.. يحدقون في الفتيات اللاتي يرتدين البناطيل "الجينز" ويغمز بعضهم لبعض كأنما يرون نساءً لأول مرة في حياتهم.

مكتبة عابث الإلكترونية

وبعد ساعة من الوقوف تقدم إلينا ضابط برتبة لـواء يطالبنـا بفض المظاهرة وإلا فضوها بالقوة.. لم نعبأ بتهديده فقد كـان محمـد صادقًا.. فالجميع هنا غير مستعد للتنازل عـن حـق الـصياح.. الكـل ينـادي: "كفايـة.. كفايـة".. الـبعض يرددهـا لأنـه يكـره الحكـم الجبري.. والبعض يقول كفايـة للغـلاء.. وآخـرون للفـساد.. كفايـة للظلم.. كفاية لطول سنوات حكم الحزب الواحـد.. كفايـة للطـوارئ التي تعطي الحق للشرطة باعتقالك ستة أشهر دون محاكمـة.. ألـف كفاية وكفاية نحتاج أن نرددها بك يا مـصر.. فقـد أصبحتِ حبلـى بالألم وحبلى بـالجراح.. حـان إسـقاط جـنين الـسفاح لتتطهـر هـذه الرحم الطاهرة.

وكنت أراقب أحمد الذي انفعل بجو المظـاهرة وأخـذ يـصرخ بشكل هستيري مرددًا كلمة واحدة: كفاية.. كنت خائفًا عليـه غـير متوقع لرد فعله.. كان يصرخ بجراحه وخيباته ويأسـه.. اصـرخ يـا أخي فهذا وطنك ابكِ له وابـكِ منـه.. أخـرج غـضب صـدرك ليطفـئ الغضب نار اليأس.. فالغاضبون يحيون ولليائسين الفناء.

لم يمضِ وقت طويل حتى وفَّى رجال الأمن بما وعـدوا بـه..

مكتبة عابث الإلكترونية

تقدم الجنود نحونا يحملون هراواتهم الغليظة ودروعهم الواقية يقذفون بالقنابل المسيلة للدموع.. القنابل للوطن وللعدو السلام.. العصا للشعب وللعدو الابتسام والمصافحة الحارة.. في وطن اختلطت فيه كل الأوراق وأصبح رجال الدين هم رجال النظام وليسوا رجال الله.. يصدرون الفتاوى بجلد الصحفيين لمجرد أنهم قالوا إن رأس النظام مريض فكانت الفتوى بجلدهم.. نعم لأن "الآلهة لا تمرض".. بينما خرست فتاواهم أمام العراق الذي يذبح وأطفال غزة الذين يموتون جوعًا ومسابقات ملكات الجمال وقنوات العهر الإعلامي.. لا بأس عند رجل الدين ما دام رجل النظام قال لا بأس.

الشرطة هي عصا النظام التي يمسكها بشماله.. ورجال الدين هم العصا التي يمسكها بيمينه لتكتمل علينا دائرة الخوف من عقاب الأرض وغضب السماء.. وفي المساحة بين الأرض والسماء تفعل الأنظمة ما تشاء.

انهالوا علينا كذئاب تسحق القطيع المسالم.. البعض جرى والبعض ثبت في مكانه.. لا فرق عندهم بين رجل وفتاة.. فما دمت اعترضت فستلقى مصيرك على حد المقصلة. كثيرون سقطوا مغشيًّا

مكتبة عابث الإلكترونية

عليهم من أثر دخان القنابل.. والبعض غاص في دمائه تحت ضرب الهراوات الغليظة.. واشتبكت أنا مع أقرب جندي لي.

ووسط الزحام والهرج وفوضى الوطن الحبيس.. رأيت أخي أحمد ما زال واقفًا يردد صرخته "كفاية" حتى أحاط به عدد من الجنود انهالوا عليه بالعصي والدروع.. وسقط بينهم وسقطت أنا أيضًا مغشيًّا عليَّ بعد ضربة قوية على رأسي. حملني بعض الهاربين معهم.. الكل إما مصاب هارب وإما مصاب معتقل.. حتى الفتيات الضعاف لم يرحم الجنود أنوثتهن.. تمزقت الثياب وتعرى جسد الوطن.. لا أدري هل كانوا يضربون فقط أم أن هناك اغتصابًا أيضًا.. لا بأس.. فما القضية أن يغتصبوا الأجساد بعدما اغتصبوا حريتنا وكرامتنا وصوتنا؟! كان لا يرضيهم إلا صمت القطيع!!

علمت أن أحمد قد تم اقتياده لقسم الشرطة.. اعتقلوه مع عدد كبير.. لم أكن أدري كيف سأواجه أمي باعتقال أحمد.. أصبحت مسئولاً في البيت حتى عن أخي الأكبر! لم يكن من الممكن إقناعها بأنني كنت أريد له الخير فلم أكن أتوقع أن يحدث هذا في مظاهرة سلمية.. كل ما يفعله المتظاهرون هو الوقوف على الرصيف

مكتبة عابث الإلكترونية

ورفع اللافتات.. لكن هذا ممنوع.. نعم ممنوع أن نلفت انتباههم.. مرفوض أن تحمل مرآة يرون بها حقيقتهم.. إنهم يكرهون أن يروا وجوههم الدميمة وملامحهم القاسية الغليظة في مرايا الغاضبين.

أخذت محاميًا وذهبنا لقسم الشرطة.. فرفض الضابط حضور المحامي في أثناء التحقيق.. فقلت له:

- هذا ضد القانون.

رد بصلف:

- نحن القانون! اذهبوا للقضاء ليحقق لكم القانون.. أما هنا فلا قانون إلا الذي نحدده.. لن تروا أي سجين حتى ننتهي من التحقيق.

وعرفت بعد ذلك أنه تحقيق مع الجسد.. أسئلة بمذاق السياط وكلمات بصوت الصعق الكهربي! رباه.. كيف فعلت هذا بأخي المسكين؟ هل قدرك العذاب يا أحمد حيث نزلت قدمك؟ لكن هذه المرة أنا الذي قدمتك للمذبح الجديد.. مذبح له لون الوطن.. لكن ليس له قلب الوطن الطيب.

مرت أسابيع وأنا أطرق كل الأبواب.. أكاد أموت كمدًا على

مكتبة عابث الإلكترونية

أخي.. وأخيرًا جاء أحمد.. أفرجوا عنه في الثالثة فجرًا ليسير لمدة ثلاث ساعات على قدميه وهو يحمل جسده الذي ذاق العذاب.. فتحت له فكان كشبح يقف أمامي.. عيناه تائهتان.. لم ينطق بكلمة.. اتجه إلى غرفته مباشرة.. دخلت أمي تحتضنه وتبكي وهو بين يديها كدمية لا تعرف الحزن ولا الفرح.. ذاهل عن كل ما حوله.. ساعدته في خلع ملابسه التي كان بها منذ أسابيع وهو كرضيع لا يساعدني ولا يقاومني.. ونام على سريره كأبأس إنسان فوق ظهر الأرض.. أردت أن يخرج جراحه في حضن الوطن فوضع الوطن خنجرًا في جرحه المفتوح.

أصبح أحمد أكثر صمتًا وامتنع عن تناول أي طعام حتى اضطررت إلى نقله للمشفى لوضع محاليل تمكنه من مواصلة الحياة.. وهو مستسلم تمامًا لكل من حوله.. أغلق عليه ذاته.. عيناه كنافذة ضبابية لا يرى من بداخلها ما يدور في الخارج.. ولا يدري من بالخارج عن أسرارها شيئًا.. أردت أن أنفث الحياة بروحه المثقلة بالجراح فقذفت به في بئر الموت وكهف الظلام.. تحسنت صحته قليلاً أخيرًا وقال لي: أريد أن أعود للمنزل.. فاستشرت الطبيب

مكتبة عابث الإلكترونية

فقال: لا بأس.. لكن اهتموا بغذائـه.. والأفـضل أن تـذهبوا بـه لأي مكان بعيد عن القاهرة لتتحسن حالته النفسية.

كان الوقت ليلاً.. ذهبت لأحضر سيارتي لنرجع للبيت.

– شدني من ذراعي: أريد أن أتمشى على النيل.

فقلت:

– هذا أفضل.. أنا أيضًا أريد أن أستنشق هواءً نقيًّا.

وفي أثناء السير قلت له: سامحني يا أحمد.. أنـا مـن فعلـت هذا بك عندما طالبتك بأن تـأتي معنـا.. فنظـر لـي ولم يـرد بنـصف كلمـة.. فمـشيت بجـواره صـامتًا.. فـوق كـوبري قـصر النيـل وقـف محملقًا في الماء وأنا بجواره أضع يـدي علـى رأسـه وأحـرك أصـابعي بخصلاته كما كانت تفعل أمي: هوِّن عليك يا أخـي.. هـذا قـضاء الله وتلك ضريبة لا بد أن يدفعها كل من يريد لبلده أن يتحـرر. لم يـرد أيضًا وصمت لفترة ثم قال:

– هل تؤمن بالقضاء يا عاصم؟

– طبعًا.. فكل شيء بإرادة الله.

مكتبة عابث الإلكترونية

- وهل الموت بإرادة الله أم بإرادتنا؟

- الأعمار بيد الله يا أخي.. ماذا تريد أن تقول؟ لا تقلقني عليك أكثر من ذلك.. أنا مثلك متعب أكاد أنهار.. أتماسك فقط رحمةً بأمك.. حاول أن تنسى يا أحمد.

فأكمل كلامه دون أن ينظر لي:

- لكن إذا عجزنا عن حرية الحياة فلن نعجز عن حرية الموت.

وقبل أن أفكر في جملته قفز واقفًا فوق السور فارتج قلبي وأمسكت به من قدمه:

- ماذا تفعل يا أحمد؟

- أفعل ما أريد.. فقد سحقوني بما أرادوا لي.. ذبحوا زوجتي وابني في العراق وعذبوني في مصر.. سأحرمهم من لذة عذابي ومتعة قهرهم لي.. سأحرمهم من هذا الجسد الذي أصبح ملهاتهم وتلك الروح التي زرعوا بها كل سمومهم.. سأترك لهم غابتهم.. لن أعيش ذئبًا بين الذئاب فأعوي ولا نعجة فيأكلوني.

مكتبة عابث الإلكترونية

- أحمد.. أستحلفك بالله.. انزل.. إن لم تحيَ لأجل نفسك فلأجل أمك التي انتظرت عودتك سنين.. هل جئت لتحرق قلبها بموتك هنا؟

فنظر في عيني:

- أمي.. قل لها إن أحمد متعب ويريد أن ينام.. قل لها إن أحمد يحبك.. وقل لها أن تغفر لي.

قبل أن أجذبه ألقى بنفسه.. سقط أمامي.. غرق تحت عيني.. أرى جسده المعذب وهو يختفي تحت النهر الذي يبتلع همومنا وآمالنا والآن يبتلع أجسادنا أيضًا.. أصرخ: أحمد.. لا تمُت.. أحمد..

لكن انتهى وقت النداء ومضى زمن الرجاء وحل الموت والخراب.. ابكِ أيها القلب على أخيك الذي جاء ليموت بين يديك.. عجزت يداي أن تشداه من بين مخالب الموت.. فحمل سره إلى الماء.. حمل جراحه وذهب لزوجته المقتولة وولده المذبوح.. هزموا أحلامه البريئة وحطموا آماله البسيطة.. حرمتك الأوطان يا أحمد وسلبتك كل ما كان لك وألقت بك في موقد العذاب. أطفئ أيها النيل جحيم

مكتبة عابث الإلكترونية

أخي.. داوِ أيها النهر جراحه.. كن رفيقًا به أيها الموت فلم يلقَ في وطنه إلا العذاب.. فماذا سيلقى في قبر الماء؟ يا إلهي اقبض روحي.. انزع قلبي من صدري.. فقد فاضت سيول الأحزان وأغرقت زهور الأمل وبراعم الرجاء.. ابكي يا أمي على ولدك المسكين.. قذفته الحياة إليك ليختطفه الموت من بين أحضانك.. ذوقي يا أمي مرارة الحسرة.. كلنا ضحايا الوطن.. وأنت أيها الوطن ضحية من؟!

جريت كالمجنون في كل اتجاه.. وهممت أن أقذف بنفسي خلفه لأشاركه موته عندما عجزت عن مشاركته حزنه.. لألقى مصيره البائس ونهايته المذبوحة بسكين الوطن.. لكن أحاط بي جمع من الناس الذين هرعوا إثر صراخي وجذبوني.. بعضهم أمسك يدي وآخرون يكبلون قدمي وأنا أنادي على أخي الذي لن يعود.

جاءت سيارة الشرطة وطالبوني بأن أذهب معهم لأدلي بما حدث فبصقت في وجوههم.. أنتم من قتلتموه.. أنتم من ذبحتموه.. فقيدوني وحملوني قسرًا إلى السيارة وأنا في الزنزانة ما زلت أصرخ: يا قتلة الوطن أعيدوا أحمد.. أحيوه كما قتلتموه.. حضر بعدها محمد ليخرجني من السجن مصطحبًا صديقنا المحامي حسن.. تم

مكتبة عابث الإلكترونية

تحرير محضر تعدٍّ على السلطات وسب رجال الشرطة في أثناء العمل.. وأنا من يحرر لي محضري ضدكم؟ من يقاضيكم بتهمة التعدي على الوطن وإهانة الأمل؟!

دفع محمد الكفالة ورجعت إلى البيت لأجد أمي بين الحياة والموت وحولها كثير من النسوة يذكرنها بأن النبي – صلي الله عليه وسلم – قد مات وأن الموت حق علينا.. صوت القرآن يتردد في أركان البيت يصاحبه صوت الألم.. الشيخ يقرأ آيات الرحمة.. والوطن يتلو آيات العذاب.

ارتميت في حضن أمي.. ليس غيرنا هنا يشعر بمرارة الجراح.. ليس غيري وغيرها يدرك حجم المصيبة.. وحدنا نعلم من كان أحمد الذي لم يسئ لأي إنسان وكانت حياته من أجل أسرته.. سفره كان بهدف إرسال المال لنا.. من أجلنا عاش ومن أجل من قد مات؟ أحمد الطيب الوديع ذو القلب الرحيم قد فقدناه ولن تغنينا دموع المجاملات وصراخ الرياء من حولنا.. ليس غيرنا يدرك ثمن فاتورة الموت.. فلن يدرك أحد حزن "يعقوب" إلا إذا شاهد جمال "يوسف".

مكتبة عابث الإلكترونية

أخـذت أبكـي حتـى شـعرت أن روحـي سـتخرج.. وأمـي تـهدهدني وهي تقول: كفاني أخوك يا عاصم.. لا تحرق قلبي عليـك أنت أيضًا "ما بقاش في قلبي مكان للحزن.. ارحـم أمـك مـا بقـاليش غيرك يابني".

بعـد أيـام حـضرت أخـتي أحـلام وزوجـهـا مـن الـسعودية لتشاركنا مأدبة الألم وتنال قسطها مـن العـذاب.. أخبرنـي زوجـهـا بأنـه أخذ إجازة لمدة أسبوع واحـد وسـيعودان إلى الـسعودية بعـده.. وعرض عليَّ أن يصطحب أمـي معهمـا لتعـيش في مدينـة الرسـول – صلى الله عليه وسلم – حيـث يعمـل مدرسًـا هنـاك.. أخبرتـه أننـي موافق.. لكن لا أعرف رأي أمي في الأمر. رفضت أمـي العـرض: لـن أتركك وحدك.. هل كلما جاء ولـد ذهـب آخـر؟ لا.. سـنكون سـويًّا. ألححت عليها أن تذهب لتعتمر وتزور قبر النبي – صـلى الله عليـه وسلم – وعدتـها أنني سأكون بخير.. بعد حوار طويل اقتنعت.

نعم يا عاصم.. سـأذهب للرسـول – صـلى الله عليـه وسـلم – لأشكو له ما فعلوه بأولادي.. سأمسك نافذة قبره وأناديه: انظر ماذا فعلت بنا أمتك يا نبي الرحمة! نسوا وصاياك وعذبوا ولدي من غير

مكتبة عابث الإلكترونية

أن يقترف ذنبًا.

سعدت باقتناعها حتى لا تعذبها رؤية حجـرة أحمـد الـتي صارت جدرانها تشاركنا الأحـزان وسـريره الـذي يفتقـد صـاحبه.. أسمع في الليل صوت بكاء طفل يأتي من حجـرة أحمـد فأذهـب لأرى الأمر فلا أجد شيئًا.. تكرر الأمر كثيرًا بعد سفر أمي حتـى شـعرت أنني سأفقد عقلي. تـرى مـن هـذا الـذي يبكـي؟ هـل هـو مـن صـنع أوهامي أم أن روح أحمد البريئـة جـاءت إلى سـريره لتبكـي مـصيره الأليم.

أصـبحت وحيـدًا في البيـت تلـتهمني وحـدتي وتـسحقني ذكرياتي.. يمر شريط أسود أمام عيني تكسوه بقع حمراء.. بقع مـن دم أخي ومـن دمـي ودمـك يـا مـصر.. تـآمر علـيَّ الماضـي والحاضـر فأحكمت الدائرة.. دائرة العذاب.. أحيا بين قوسين من فولاذ حمته نار السعير.. فإذا هربت مـن الماضـي سـحقني الحاضـر.. والمـستقبل تائه بينهما.. أتساءل: هل هناك مـا يـستحق هـذا الـثمن كلـه؟ أي نهاية وأي مصير ينتظرانني عند نهاية الطريق؟ ذاك الطريق المظلم الذي غطت الأشواك أرضه وتراقصت الـشياطين والأشـباح في أفقـه..

مكتبة عابث الإلكترونية

نفق مظلم أزحف فيه ببطء أبحث عن مخرج الأمل وطاقة الرجاء لكن غابت الأنوار كلها.. ولا يحدوني إلا صوت الأنين يقودني من حفرة لحفرة ومن ضربة لضربة.. اصرخي يا روح أحمد وابكي كيف شئت فإن يدي عاجزة عن كفكفة دموعك.. انفخي أيتها الروح المعذبة في أبواق الألم فقد امتلأت الكأس وأدمنت نفسي عزف الجراح.. لماذا تعذبني أيها الغارق تحت الماء وأنا أطفو على وجه السعير لأحترق بموتك؟ أنا لم أقتلك يا ابن أمي.. إنما قتلك سجان الوطن.. فلماذا تبعث روحك لتعذبني ببكائها؟ جدير بك أن تبعثها لمن عذبوك وعذبوني وعذبوا مصر قبلنا.

جاء محمد وعلياء يقدمان واجب العزاء وإثرهما فوجئت بقدوم سارة أيضًا. جلس الثلاثة حولي.. الحب الذي رفضته والحب الذي رفضني وصديقي بينهما. عرض محمد أن أذهب لأعيش معه في بيته يسلي بعضنا بعضًا.. وأخذت علياء وسارة تقنعانني بالأمر.. سارة لا تعرف أن علياء كانت حبيبتي من قبلها وعلياء لا تدري أن تلك الجالسة هي من نسلتني من بين يديها. الآن يجلس أمامي الماضي الذي رفضته والمستقبل الذي يهرب مني.. كلاهما اجتمع في

مكتبة عابث الإلكترونية

لحظة الموت وسرادق العزاء.. هكذا لا تجتمع الأمنيات إلا في لحظة الرحيل وساعة الزهد في الحياة.. الكف التي سحبتُ يدي من بين أناملها والكف التي توارت عني.. لأقف بينهما على الجسر.. بين جنة تركتها وجحيم بخل عليَّ حتى بلفح النار.. بعين ذاهلة أقف على الجسر الصامت.. تحت البرد والظلام أقف ذاهلاً عن نهاية المصير.. رفضت العرض وقلت لهم سأذهب إلى شقتنا بالإسكندرية.. فأنا أحتاج لتغيير الجو.. البحر سيغسل همومي.

رحبوا بالفكرة وحزمت حقيبتي وسافرت في بداية مارس.. أقضي النهار في النوم والليل أقضيه بين يدي البحر.. لا أدري أينا كان أكثر صخبًا: صوت الحزن بداخلي أم صوت الموج بداخله.. نحن بحور صغيرة تحبسنا شطآن الجسد مهما علا الموج ليضرب صخر الشواطئ يعود أدراجه أسير الماء.. اغسل أيها البحر حزني بيدك المالحة ورياحك الهائجة!

رجعت لشقتي بعدما لفحني البحر بمزيد من أسراره.. فلسنا وحدنا الأسرى في هذا الوجود. استلقيت على سريري.. غادرت القاهرة لكنها ترفض أن تغادرني.. هاهي تطاردني

مكتبة عابث الإلكترونية

بآلامها.. يتراءى لي خيال أخي أحمد كلما التفتُّ ذات اليمين.. ويتراءى لي عذاب الوطن كلما نظرت صوب الشمال.. البكاء عاد من جديد.. يبدو أن روح أحمد ما زالت مصرة على إحاطتي بجراحه.

أسمع صراخ الطفل أكثر نحيبًا وأعلى صوتًا.. أشعر أنني على شفا الجنون.. قمت لأفتش الحجرات وكلما فتحت بابًا سمعت البكاء يأتي من خلف باب آخر.. فالبكاء ينتظرنا خلف الأبواب كلها.. كثيرة هي الأرواح الباكيات في وطني.. فلمن هذا الصوت يا مصر؟ أي ضحاياك هذا الذي جاءت روحه تبكي خلف أبوابي؟ هل هي روحك يا أحمد ما زالت تناديني للثأر؟

لتسكن روحك يا أخي.. فممن تريدني أن أنتقم: من الجنود البسطاء الذين عذبوك بأمر قادتهم.. أم ممن عذبوك في العراق.. أم أنتقم من مصر التي لم تجني شيئًا وإنما جنى عليها أبناؤها الصامتون؟

هل هذا نواح الأرواح المعذبة تطلب الراحة الأبدية بسحق الظالمين.. أم أنها تبكي علينا نحن السجناء بين الأرض والسماء؟ الأموات نالوا راحتهم.. على الأقل لم يعد هناك من يقتادهم بغير

مكتبة عابث الإلكترونية

جريرة.. وليس هناك من يجلدهم لأنهم قالوا للطاغية "لا". وحدنا نحن الأحياء في هذا الوطن لا نزال نتجرع كأس المذلة.. تعربد القيود على معصم العجز فينا.. فلتمضي أيتها الروح الباكية بعيدًا حتى لو كنتِ روح أخي أو روح الوطن أو حتى روح الشيطان.

اصمتي أيتها الروح.. فما عاد في قلبي موطن يحتمل الألم.

قررت أن أعود إلى البحر مرة أخرى.. وفي الطريق وجدتني أقف أمام حانة اسمها "دون كيشوت".. ترددت لدقائق ثم قررت الدخول.. أنا لم أشرب الخمر مطلقًا في حياتي.. لكن هذا وقت السُكر.. فمن أكثر مني جراحًا؟ ومن أحق مني بنسيانٍ له مذاق الخمر؟

لا أدري لماذا كان اسمها "دون كيشوت".. ذاك النبيل المجنون الذي اخترعه "شكسبير".. لا بأس.. فكلنا دون كيشوت.. بعضنا يقاتل طواحين الهواء وبعضنا يقاتل طواحين الوطن.. فهاهنا إما أن تكون منافقًا سعيدًا وإما أن تكون نبيلاً مجنونًا!!

وقفت أمام النادل:

– ماذا تقدمون؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- اطلب ما تشاء ستجده.

ألجمتني الحيرة.. فأنا لا أعـرف أيًّـا مـن أسمـاء الخمـور.. اللهم إلا ما أسمعه في أفلامنا الـتي تقـدم البطـل دائمًـا بـين الكـأس والغانية.. ويسكي أو شامبانيا..

- أي شيء.. أليست كلها خمورًا؟

نظر النادل بريبة ويبـدو أنـه أدرك أنهـا المـرة الأولى الـتي أحتسي فيها خمرًا:

- مـا رأيـك أن تـشرب شـيئًا مـن اختيـاري سينـسيك كـل همومك؟

أربكتني كلمته.. من أين عرف أنني مهموم؟ هـل ملامحـي تفضحني إلى هذا الحـد.. أم لأن كـل مـن يحيـا هنـا لا بـد أن ينالـه نصيبه من الهم؟

ابتسمت راضيًا عن اقتراحه.. جلست على كرسي مرتفـع في مقابل البار.. وبعد دقائق قدم لي كأسًا من نبيذ أحمر رفعتـه لفمـي مترددًا.. فما زال يصرخ في صـدري صـوت الحـلال والحـرام.. لكـن الألم كان أعلى صوتًا.. فرفعت الكأس لفمي جرعتها على مرة واحدة

مكتبة عابث الإلكترونية

حتى لا أشعر بمرارتها.. وأخبرني النادل بثقة خبير: ستشعر مذاقها مرًّا في البداية لكن ستسري النشوة بعد ذلك في بدنك كله.. وقدم لي كأسًا في إثر كأس حتى دار رأسي وتداخلت الرؤى أمام عيني.. أضحك تارة بصوت مرتفع وأجهش بالبكاء تارة أخرى.. وبينما يشتد الخدر في جسدي وتتراقص الخيالات أمامي رأيت "شيخًا عجوزًا" يجلس أمامي لا أدري من أين جاء ومتى ظهر. فجأة اختفى كل ما حولي.. غاب النادل عن نظري والسكارى الذين يعج بهم المكان.. وخفت صوت الموسيقى الصاخبة.. ونظر الرجل في عمق عيني وهو صامت لا ينطق بكلمة.. رجل له ملامح غريبة لا تشبه ملامح الناس.. عيناه لهما لون النهر الحزين.. ووجهه تعلوه الكبرياء.. ثوبه رث مهترئ لا يناسب طلعته الوقورة المهابة.. لحيته بيضاء طويلة تصل إلى منتصف صدره.. ويتدلى شعره منسابًا له بياض الثلج. وضع يده على كتفي فسرى برد أصابعه الطويلة في أعصابي وأرعبتني نظرته المتقدة بالغضب ثم هزني هزة عنيفة.. وقال:

– تكلم.

مكتبة عابث الإلكترونية

قلت له:

– ماذا أقول؟

فهزني ثانية:

– تكلم.

– ماذا أقول؟

فكانت هزته الثالثة أشد قسوة:

– تكلم أيها البائس.. ماذا أصابك وألقى بك في بئر اليأس؟

– مصاب أنا بجرح وطني الذي لا يطيب أبدًا.

– ألست طبيب الجراح؟

– نعم.

– فانهض يا ولد داوِ جرح نفسك لتقوم قويًّا لمداواة جرح الوطن.

ضحكت ساخرًا:

– كيف أداويه وهو من ذبحني؟

فاشتعلت النار بين عينيه وصاح بصوت راعد:

مكتبة عابث الإلكترونية

– الوطن لا يد له ليذبح.. أنتم الوطن.. فإذا سقطتم في يأسكم فماذا يبقى غير الصخور والتراب؟ النهر لا قيمة له إلا بمن يحيله بساتين تطعم الإنسان وتئوي الطير.. والشمس ماذا تصنع لو سطعت على عيون العماة؟ الصخر لا يصنع الرجال ولكن يصنع الرجال منه الحياة.. انهض وآمن بنفسك لتخرج وطنك من سجنه الكبير.. قم أيها السكران فلم يأتِ وقت البكاء.. اصنع التاريخ وانتصر في معركة الحياة.. وعندما تجوز الجسر بين اليأس والرجاء وتحوز النصر الموعود ساعتها ستجد وقتًا لتبكي كل الجراح.

فقذفت يده عن كتفي:

– اذهب عني أيها الشيخ الشاحب فإني ميت.. هل سمعت يومًا أن الأموات يصنعون الحياة؟ فاذهب أنت ودافع عن الوطن الذي ترجو.

– أيها الضعيف.. إن الوطن لا يدافع عن نفسه إنما يدافع عنه أبناؤه.

فقهقهت:

– فاذهب إذًا أيها الابن البار ودافع عن وطنك!!

مكتبة عابث الإلكترونية

فقام ناهضًا يتطاير دخان أبيض من شعره الطويل وتشتعل عيناه بلون السحاب الأحمر في ليلة رعد غاضبة وصاح بصوت زلزلني:

- أتسخر من وطنك أيها العاق؟

- من أنت أيها الرجل؟

طرح عباءته عن جسد مزقته الضربات.. طعنات فساد.. وسياط ظلم.. وجراح كبرياء.. جسده خارطة وطن مكلوم.. وقال:

- أنا الوطن.. أنا الوطن.. أنا الوطن.. فقم وحرر يدي ممن قيدوني.

فنظرت في عينيه الطيبتين على الرغم من الغضب.. وسرى صوته في عمق روحي.. ثم تذكرت أخي الغريق وأمي الغائبة وسارة البعيدة.. فطأطأت رأسي وارتخت أناملي وخبتت عزيمتي.. فأمسكت بزجاجة النبيذ وصببت كأسين وضربت كأسًا بكأس ورفعت له أحدهما:

- اشرب معي إذًا.. في صحتك يا وطن.

مكتبة عابث الإلكترونية

فهز رأسه في ألم وخيبة رجاء.. وألقى بالكأس على الأرض وهو يردد:

- إذًا سيطول أسري وتطول غربتي.. ثم اختفى فجأة كما ظهر فجأة.

لا أدري هل كان هذا واقعًا؟ هل قابلت الوطن وجهًا لوجه.. أم أن الخمر قد فعلت بي أفعالها؟ لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك.. فلم أفق إلا وأنا ملقى على الرصيف المقابل للحانة تلسعني أشعة الشمس وحولي أطفال حفاة ينظرون لي ويتضاحكون مني.

رجعت لشقتي وما زال الصوت يتردد صداه في أذني: أنا الوطن.. أنا الوطن.. فأضحك من هذياني وأنا أردد: في صحتك يا وطن.

لم ينقذني من هذا الهذيان إلا هاتف سارة عندما اتصلت بي.

مرت خمسة شهور وأنا هناك.. كانت سارة تتصل بي يوميًّا.. لا أدري هل بدافع من شفقتها أم بدافع من شوقها.. وأيًّا ما كان الأمر.. كانت سارة الشيء الوحيد الذي يمنحني السعادة..

مكتبة عابث الإلكترونية

وكان صوتها هو الحبل السُرِّي الذي يربطني بالحياة. وفي منتصف أغسطس قالت:

- مشتاقة أن أراك يا عاصم.. إما أن تحضر إلى القاهرة وإما سأحضر إليك لألقي عليك القبض متهمًا بجنحة تهرب صحفي.

فضحكت:

- إذًا فإنني أعترف بجريمتي وعليك أن تعتقليني فورًا.. سأحزم حقائبي وأعود إلى القاهرة في غضون يومين علي الأكثر.

- سأكون في انتظارك.. فلا تتأخر أكثر من ذلك.

كان اقتراب سارة مني في الشهور الخمسة دافعًا جديدًا للحياة.. أصبحت هي كل همي والشيء الوحيد الذي يخفف من ألم الوحشة والوحدة.. كنا نلتقي كثيرًا لكن لم أعد أخبرها بحبي.. فقط يكفيني أن أراها وأحادثها. وذات لقاء سألتها:

- سارة.. أنتِ لم تكملي لي قصتك ولم تخبريني لماذا تركتِ الرجل الذي أحببتِه بعد أن أصبحت حاملاً منه؟

فابتسمت:

مكتبة عابث الإلكترونية

- تأخر سؤالك كثيرًا يا عاصم.. كنت أتوقعه في كل لقاء.. لكن أنت رجل صعب المراس.

- أنا أكره الأسئلة المباشرة.. ولا أحب أن أهاجمك بسؤال قد يقيدك بالخجل أو يضطرك للكذب.

- لا هذا ولا ذاك.. فأنت أصبحت أقرب شخص لي ولا أخجل من سرد أسراري بين يديك.. فليس لي صديق أقرب منك يا عاصم.. أنا لم أخبرك ليس لعدم ثقتي بك ولكن لأن هذا الأمر يدمي قلبي ولا أريد أن أتذكر تلك الليلة السوداء التي فقدته فيها للأبد.. كان حملي سببًا جديدًا لمنحي مزيدًا من الحب.. وكان يعد الأيام في انتظار طفل يحمل اسمه وطالبني بأن أخبر أمي بأمر زواجنا في أقرب فرصة.. وقال: سأقيم لكِ فرحًا يليق بحبي لكِ يا حبيبتي وأم طفلي.. كان كل شيء يسير بيننا بشكل جيد.. كلما مر يومٌ أصبح أكثر سعادة لاقتراب نزول ذاك الضيف المنتظر لأمنحه الولد الذي عجزت زوجته عن أن تمنحه إياه لأنها كانت امرأة عاقرًا.. كنت أشعر أنني سأنتصر عليها بهذا الطفل.. كنت أغار من أثر عطرها على جسده ومن ترديد اسمها على شفتيه.. كان كل ما لي ولم أرضَ

مكتبة عابث الإلكترونية

إلا أن أكون أيضًا كل ما يشغله.. فليس شيء أصعب على امرأة من وجود أخرى في دائرة رجلها.. الحب شهوة مثقلة بحق الامتلاك.. ليس الرجل وحده من يمارس شرقيته في هذا.. وكانت المفاجأة التي عصفت بقلبي وأحرقت أجنحة فرحتي الوليدة.. عدت إلى شقتنا ذات صباح لأنني لم أكن أمكث بها في الليل حتى لا تشك أمي في الأمر.. فقد كان لي النهار ولليل الأشواق والحرمان. ذهبت إلى الشقة لأنتظره فانقبض صدري أول ما دخلت.. وشعرت أن الجدران تخبرني أن أمرًا حدث هنا في الليل.. اتجهت إلى غرفة النوم مباشرة.. أتشمم شراشف السرير.. أبحث عن ذلك الخيط الأسود الذي يناديني.. فوجدت عطرًا ليس عطري ولا هو عطره.. وقطعًا لم يكن عطر زوجته أيضًا.. تلاحقت ضربات قلبي واضطربت أنفاسي.. وعندما رفعت وسادة السرير رأيت دليل الخيانة.. رأيت الخنجر الذي طعن قلبي. كانت تحتها صدرية سوداء رفعتها لأنفي كانت تختلط بعطره وذاك العطر الدخيل علي سريري. جلست صامتة.. غابت الدموع عن عيني وعربد الألم على صدري وأنا أردد كالمجنونة: لماذا؟ لماذا؟ جاء في موعده المعتاد بعد الظهر.. فالتزمت

مكتبة عابث الإلكترونية

الصمت.. وأعددت له الغداء وهو ينظر لي من طرف خفي يتساءل:

- ما بكِ يا سارة؟ هل حدث شيء؟

- ليس بي شيء.. لماذا تسأل؟ هل هناك ما يزعجك؟

- لا.. فقط أريد أن أطمئن عليكِ.. ولا أدري.. أشعر أنك على غير عادتك.

- أنا لا أغير عاداتي.. فهل تغيرها أنت يا زوجي المخلص؟!

وقعت الكلمة عليه كالماء البارد في جوف الشتاء فنهضت وألقيت بالصدرية بين يديه:

- هل اشتريت هذه لي أم أن أحدهم أهداك إياها؟

أربكته المفاجأة وامتقع لونه بلون الصدرية التي بين يديه وتحدث مرتجفًا:

- سأفهمك كل ما حدث.. لكن أرجوكِ أعطني فرصة ولا تتسرعي بالحكم.

- أخبرني أولاً لمن هذه؟ أخبرني فورًا قبل أن تقول أي

مكتبة عابث الإلكترونية

مبررات.

- دعيني أشرح لكِ.

- لمن هذه؟ لن أسمع أي شيء قبل أن تخبرني من هذه التي حملتها لسريري بالأمس.

فرد بصوت خفيض يملؤه الخزي:

- إنها لريهام.

- ريهام من؟ ريهام التي تعرفت عليك في حفل زفافها أم ريهام أخرى؟

- لا.. بل هي ريهام صديقتك.

- كيف؟ ريهام متزوجة.. مستحيل أن تخونني مع أقرب صديقاتي.. أليس زوجها صديقك وشريكك في العمل؟ أي نوع من الرجال أنت؟ وأي حيَّة من النساء هي؟ هل كنت عمياء عن رؤية حقيقتك طيلة هذه السنين؟

فركع بين يدي يقبل يدي وقدمي وهو يبكي:

- أرجوكِ سامحيني.. أقسم لكِ لم أخُنك قط.. كانت المرة

مكتبة عابث الإلكترونية

الأولى.. لست خائنًا لحبك يا سارة.

- كم مرة تكفي؟ وكم امرأة تريد حتى تصبح خائنًا؟ أنت بطل من ورق ورجل من خيال.. أنت وهم صنعته بنفسي ودفعت ثمنه باهظًا جدًا.. طلقني فورًا أيها الجبان.. لا أستطيع أن أنظر في وجهك.. أنا أحتقرك من كل قلبي.

- أرجوكِ اغفري لي من أجل طفلي الذي بين أحشائك.

- وما أدراك أنه ولدك؟

فوضع يده على فمي:

- لا تقولي هذا يا سارة.. هذا مستحيل.. أرجوكِ لا تقولي هذا.

- نعم مستحيل.. لأنني لست مثلك ولن يشرفني أن تكون والدًا لطفلي.

تركت الشقة وعدت لبيت أمي.. أغلقت حجرتي على نفسي لأيام لا أدري كم عددها.. وأغلقت هاتفي.. كنت لا أريد أن أرى أو أسمع أي إنسان.. فكرت كثيرًا كيف أحرق قلبه كما أحرق قلبي..

مكتبة عابث الإلكترونية

كيف أذيقه من كأس الألم التي قدمها لي.. وقررت أن أتخلص من الجنين.. فلم يكن هناك من شيء يسعد قلبه أكثر من هذا الطفل.. سأقتله لأقتل فرحته وأقضي على أمله.. وأجريت عملية الإجهاض ثم اتصلت به ليحضر إلى العيادة.. فجاء سريعًا يغمره القلق:

– ماذا حدث يا سارة؟ أي مكروه أصابك؟

– فاعتدلت أستجمع قوتي المنهارة كسدٍّ يقاوم فيض الألم الممض يسحق طوفان النزف الممض: أنت المكروه الذي أصابني والمرض الذي هدني.. لم أتصل بك لتشاركني ضعفي ولكن لتحمل جثة طفلك.. فلن أقبل أن ينمو جسدي على شيء منك.

أذهلته الصاعقة وصرخ في الطبيبة: ماذا فعلتِ؟ وجرى إلى بقايا الطفل الذي لم يجاوز الشهرين في رحمي.. حمله بين يديه وهو يصرخ: قتلتموه يا قساة القلوب.. هل هذا ردك يا سارة؟ هل هذا حبك أيتها الظالمة؟ كان ألمه يشعرني بلذة الانتصار ونشوة الانتقام.. وفي الوقت ذاته كنت أتمزق من داخلي.. فلم أحب أحدًا كما أحببته.. كانت دموعه تحييني وتقتلني.. تسعدني وتمزق قلبي في الوقت ذاته.. فالخيانة تشوه أرواحنا وتجعلنا مسوخًا نعيش بين

مكتبة عابث الإلكترونية

سكرة الضحك ورجفة البكاء.. انقطعت أخباره عني لشهور.. وعلمت بعد ذلك أنه عاد إلى لندن.. أعادت الأيام الصواب إلى عقلي وأخذت أفكر في كل ما حدث.. فقد كانت ريهام من ذلك النوع الذي يرغب في امتلاك كل شيء.. لا بد أنها هي من غررت به.. كان يجب أن أستمع لدفاعه وأن أحتمل طعنته من أجل حبنا وطفلنا.. أرسلت له عشرات الرسائل وحاولت أن أطرق كل أبوابه.. لكنه لم يرد على أي من رسائلي.. كل يوم يمر كنت أزداد ألمًا.. وقررت أن أسافر إليه.

كنت أرجو استعادته بأي ثمن.. وبالفعل سافرت وقابلته فأخبرني أنه صفّى كل أعماله في القاهرة وطلق زوجته.. كان يعيش كراهب في بلاد الغرب.. ضعفت صحته وأصبح كعجوز في الثمانين وليس كرجل لم يبلغ الخامسة والأربعين.. صار مدمنًا للخمر لا يكاد يفيق حتى يعود لسكره.. رجوته أن يعود لنتزوج مرة أخرى.. أقسمت له أني نسيت خيانته لي وغفرت له.. فقال: لكني لم أنسَ خيانتك لحلمي ولن أغفر لكِ. ارجعي من حيث أتيتِ.. لا أطيق أن أرى وجهك.. دم طفلي ما زال على يديكِ أسمع صراخه داخل

مكتبة عابث الإلكترونية

رحمك التي قذفته للموت.. اذهبي.. لا أريدك. ورجعت إلى مصر ونذرت حياتي للعمل بالصحافة.. وخلال ثلاث سنوات أصبحت أهم محررة بالجريدة.. وعلى الرغم من كل ما وصلت إليه ما زلت أعيش على ذكرى ماضيه أكابد ألم حرماني منه كلما خلوت بنفسي.

استمعت لها وأنا حائر.. هل أخفف من ألمها وأخبرها أنه المسئول عما حدث.. أم أصارحها بأنها كانت قاسية القلب ظالمة الانتقام؟ والغريب أنني لم أرَ أثرًا للدموع في عينيها.. فليست كل العيون تمتلك رفاهية البكاء. هل أقتل حبها في قلبي كما قتلت طفله في رحمها.. أم أفتح أبوابها الموصدة وأنزع أستارها المسدلة لتغير وجهة سفين الحب إلى شطآني ويرسو قلبها على ميناء صدري؟ كنت أعلم أنها قوية.. لكن ليس إلى حد اتخاذ قرار بالقتل.. المرأة التي تستطيع أن تقتل طفلها لتشبع شهوة الانتقام قادرة على أن تقتل حبها لإشباع شهوة أخرى.

أصبحت حذرًا معها.. أحاول أن أستكشف مناطقها المظلمة وأمسك كل خيوطها.. ربما كنت أخشى من مصير مشابه.. وربما لأنها لم تبادلني حبي فأردت أن أحصل على كرامتي إن لم أحصل

مكتبة عابث الإلكترونية

على قصتي معها.. وأصبحت هي أكثر لهفة وتشوقًا للقائي.

تخلت عن الكثير من حذرها وتحفظها السابق.. دائمًا تحضر قبل موعدنا ولا تنصرف إلا بعدما ألفت انتباهها إلى أن الوقت تأخر.. على الرغم من رقتها معي فإنني أصبحت أكثر قلقًا كلما تذكرت انتقامها البشع من الرجل الذي أحبته وأنا أسأل نفسي: إذا كانت قد فعلت هذا مع رجل ملك قلبها.. فتراها كيف يمكن أن تصنع مع رجل لا يملك منها أكثر من لهفة وابتسامة من حين لآخر؟!

حقًّا إن النساء عالم مستقل وقوة كامنة كبركان ينام تحت أرض من الثلوج.. يمكن أن يحيل برد الحياة إلى جحيم لمجرد أنك جرحت أنوثة الأرض أو ضغطت على كبرياء الرحم.

المرأة لا تنظر للحب كمشروع قابل للربح والخسارة.. بل كحياة لا تعرف إلا العيش أو الفناء.. فإذا سقط حبها تحولت لكائن شائه أشد قسوة من جنرالات الحرب وأمرّ مذاقًا من وقع السياط.. فالمرأة لا تعرف إلا الأمل الكبير أو اليأس القاتل.. سمعت عن تلك المرأة الأمريكية التي قطعت "عضو" زوجها لمجرد أنها شكت

مكتبة عابث الإلكترونية

بخيانته ثم ظلت طوال حياتها ترعاه وهي تقول لـه: الرجـل لا بـد من إجباره على الوفاء أما المرأة فهي لا تخون أبدًا إذا كـان في قلبهـا حبيب.. كل الرجـال يـصبحون عنـدها مجـرد أشياء.. ورفـضت أن تتزوج بعد موته كأنها تلقنه درسًا أشد قسوة في معنى الوفاء لـتهين بموقفها موتـه كما أهانت حياته.

وتلك المرأة الصينية التي قتلـت زوجهـا ثـم حنطـت جـسده واحتفظت بـه ممددا على السرير أربعين سـنة تـصلي أمـام جثمانـه لـ"بوذا" كي يعذب روحه في الجحيم جزاء خيانته لها.

حقًّا إن رحم المرأة التي حوت الرجل تجعلها تحوي وجوده وتحيط بكل أفكاره.. بينما نحن الرجال لا نشاهد مـن عـالم النـساء إلا أسوار وجودهن كمقبرة فرعونية لا يعبث أحد بسرها إلا أصابته اللعنة الأبدية.. هل إذا امتلكنا أرحامًا يمكـن أن نفهـم النـساء ذات يوم؟ لا أدري.. حقًّا لا أدري.

وذات أمسية طلبت مني أن نتمـشى في تلـك الليلـة الـصيفية الرائعة.. كانت كف النسيم تسرح بـين خـصلات الـشجر فتتهـادى الأغصان في رقصة حالمة.. ومع تطاير الأغصان كانت خـصلات سـارة

مكتبة عابث الإلكترونية

تمارس رقصتها هي الأخرى.. شعرها الأسود ينساب كجدول على ظهرها تلتمع عيناها تحت ضوء المساء.. كلما نظرت إليها شعرت برغبة عارمة في ضمها.. كنت أشتاق لقبلتي الأولى معها.. فلكل قصة قبلة.. فأين قبلتي منك يا سارة؟ شفتاها المكتنزتان توقظان رغبة الرجل بداخلي.. وصوتها الدافئ المبحوح يخبرني أي نوع من النساء هي.. كمهرة برية لا تكترث لشيء.. تعربد الأنوثة على جسدها الصارخ بشهوة سرية.. فلنساء الشرق سحر مختلف وشهوة مختلفة.. يختلط فيها خضوع الأنثى بمراوغتها.. تتماهى الرغبة والتمنع ليصنعا مزيجاً من جنون الشهوة.

كنا نسير بهدوء كذاك الذي يسبق العاصفة.. لامست يدي أناملها عن غير قصد فسرت قشعريرة في جسدي كله.. كنسمة شتوية تلسعني.. ونفثت رياح اللذة في جمر الحرمان فاشتعل جسدي شوقاً إليها.. فلم أتردد في أن أحتضن أناملها الصغيرة بين كفي وأنا أضغط عليها برفق كمشروع عناق لم يكتمل.. فاستسلمت ليدي ولم تقاوم.. وأخذت تعبث بأظافرها بباطن كفي فتثير حنيني إليها وشوقي.. جلسنا على أريكة تحت شجرة وسألتها:

مكتبة عابث الإلكترونية

– هل ما زلتُ صديقك فقط يا سارة؟ أما آن لك أن تشعلي حريقًا في هذه الصداقة ليتطاير دخان الحب الأبيض؟

أخذت نفسًا عميقًا وهي تنظر لعيني:

– أنت كل من لي في هذا العالم يا عاصم.. أصبحت فاقدة للسيطرة على رغبتي في رؤيتك كل وقت.. ولا أشعر بالراحة والأمان إلا بين عينيك.. نظرتك العميقة تغريني بك أكثر.. وكبرياؤك الممتزجة بحنانك تشعرني بأمان كامل وأنا معك.. لا أنكر أنني أصبحت أفكر فيك كلما خلوت بنفسي.. لكن أنا لم أُشفَ من جرحي.. ما زالت تجربتي السابقة تحاصرني وتشدني لأعماقها كلما طفوت على السطح.. فأرجوك اصبر عليَّ يا عاصم.

– أنا لا أتعجلك.. فقط أريد أن أعرف أين أقف.. فلست من هواة السير بعين مغمضة.

– ألم تقل لي كثيرًا إنك تثق بالقضاء؟ فكن معي وثق بالقضاء.. فأنت الإنسان الوحيد الذي أثق به.. هل يرضيك أن أقول لك إنني أحتاج إليك.. أحتاج لوجودك معي؟

– يرضيني قربي منك ويزعجني أن أكون مجرد احتياج

مكتبة عابث الإلكترونية

لك.. مرفأ تستريحين عليه ثم تواصلين رحلتك في عرض البحر! !

- لا تكن ظالمًا يا عاصم.. أنا أبحث عنك في كل مكان.. حتى إنني أصبحت أشعر نفسي ثقيلة أفرض وجودي على خارطتك.

- بل أنت خارطتي كلها.. لكن لا أجد حدودًا لتلك اللوحة التي تجمع خيوطك.. متسربة أنت دائمًا من بين يدي.

فابتسمت ومالت نحو كتفي:

- كيف أتسرب منك وأنت تحيط أصابعي بدفء يدك؟ لمستك تسري في عروقي كتميمة سحر أنقاد لها بغير إرادة.. لقد تأخر الوقت.. هل أكون سخيفة إذا طلبت منك أن تصحبني بسيارتك إلى منزلي؟

- بالطبع سأوصلك.

غادرنا المكان وأنا حائر في كلماتها الفضفاضة.. فلا هي اعترفت بحب ولا هي أغلقت الباب دوني.. كانت امرأة تسير بمحاذاة المشاعر دون أن تعانقها.. تروغ روغان الثعالب.. كلما قبضت يدي عليها حتى أقول ملكتها فأكتشف أنني لم أقبض سوى الريح.. ماءٌ أنت يا سارة يمنحنا الحياة دون أن نحدد له لونًا ولا

مكتبة عابث الإلكترونية

نغلق عليه أيدينا.. إلى أين يحملني حبك أيتها المتسربة في عروقي؟

وصلنا إلى باب المنزل.. وقبل أن تغادر السيارة رفعت يدها لشفتي وطبعت قبلة على باطنها لأعيد رسم خطوطها لتصبح خطوطاً بلون الشوق وطعم الحرمان الذي أقاسيه معها.. نزلت من السيارة وراقبتها حتى غابت في مدخل بيتها ثم انطلقت.

وبعد دقائق اتصلت بي على الجوَّال وكانت أولى كلماتها: "وحشتني".. سرى صوتها في أعصابي مخدرًا لا أريد أن أفيق منه: "وأنت يا سارة وحشتيني".

- هل سأكون سخيفة إذا طلبت منك أن ترجع مرة أخرى؟

- لكن الوقت تأخر.. كيف ستغادرين المنزل مرة أخرى؟

فواصلت مفاجأتها:

- لن أغادر.. بل أنت من ستصعد لي.. أمي تركت لي ورقة تقول إنها ستبيت عند جدتي لأنها متعبة قليلاً.. ألا تحب أن تذوق قهوة من صنع يدي؟

- أخشى أن أدمنها!!

مكتبة عابث الإلكترونية

– لا بأس.. فقهوتي جديرة بأن تغامر من أجلها.

– حسنًا سأكون عندك بعد قليل.. في أي طابق تسكنين؟

– الطابق الثالث شقة 9.

صعدت الدرج تقودني خطى الشوق.. كنت أتمنى أن يجمعني بها لقاء أدفع حياتي ثمنًا له والآن سيجمعني بها لقاء وجدران تكتم الأسرار.. قبل أن أضغط الجرس فتحت الباب:

– أعرف جيدًا صوت خطوتك.. خطواتك على السلم مميزة.

– أتمنى أن تعرفي أيضًا صوت قلبي.. فوقعه أعلى صوتًا.

– ادخل أيها الطماع!

كانت في ملابس المنزل أشد إثارة وأكثر روعة.. عطرها أكثر جرأة وشفتاها أكثر شهوة:

– قهوتك بغير سكر.. أليس كذلك؟

– نعم.. فليس للسكر موضع في وجودك.. كل مذاق سيبدو مرًّا مقارنة بك.

دخلت المطبخ لتعد لي قهوتي.. أخذت أنظر في كل ما

مكتبة عابث الإلكترونية

حولي.. هاهنا تعيش سارة.. على تلك الأريكة تجلس.. وعلى هـذه المائدة تأكل.. ذوقها رقيق.. لم يكن هناك أثاث كثير يحجب الرؤية ويحد من مساحات الحرية.. كل ما هنا بسيط وكل مـا هنـا محظـوظ لأنه يشاركك المكان.. وحدي محروم منك.. أخذت أحرك يدي علـى الستائر وأمررها على المقعد لـتلمس كـل المواضـع الـتي تحظـى بهـا دوني.. كان الضوء خافتًا كصوت الحب في صدرها.. مـشبوب بـالقلق لا هو إلى الظلام ولا هو إلى النـور.. كـان بـين بـين.. تمامًـا كقـصتي معها بين بين.. فلا أنا أعرف هل أصبحت الحبيـب أم أنـني حبـة النسيان التي قررت ابتلاعها لتنسى إخفاقها القديم وحبها الموءود.

جاءت تتهادى في ثوبها كغيمة صيف تمشي علـى اسـتحياء على صفحة السماء تـدفعها نـسائم الجمـال.. تـسير بغـير هـدى لا تحدد اتجاهًا ولا يستطيع أحد أن يتوقع متى ستسقط مطرًا.

– أرجو أن تعجبك قهوتي.. يقولـون إنـني مـاهرة.. لكـني أشك في كل مهاراتي وأنا معـك.. فوجـودك مربـك للغايـة.. أنـت لا تترك مساحات بيضاء فعيناك تسيطران على كل ما حولك.

ابتسمت لكلماتـها ثم ارتشفت القهـوة.. كانـت مُـرة كمـذاق

مكتبة عابث الإلكترونية

حرماني منها ونكهتها شهية كشفتيها وقوامها رشيق كجسدها.. سارة هي قهوتي التي لا يعرف سر مذاقها أحد سواي!

وضعت الفنجان ونظرت بعمق عينيها:

- أحبك سارة.

- وأنا مأخوذة بك! أي جنون هذا الذي تدفعني إليه أيها الغريب؟ ما عدت أسيطر على شوقي إليك.. أنت تملأ كل فراغاتي.. والغريب أنه يرضيني ما يحدث.. لا أريد أن أفكر حتى إذا كان صوابًا أم خطأً أن تشاركني أريكة في شقتي على مسافة من الجنون والهوى.

- لو أنك توارين جثة حبك القديم لنقيم سويًّا بستانًا من عشق جديد!

- دعك من الماضي واتركني الآن أراك كما أنت.. أعشق أن أرى عينيك تتسللان داخلي وأن يحويني صوتك.

وضعتُ يدي على خدها لأرفع بسبابتي خصلة سقطت عشقًا على وجهها فأغمضت عينيها مستسلمة ليدي.. أغرقت أناملي بشعرها فغمرني طوفان من السحر أصابني بسكرة من غير خمر..

مكتبة عابث الإلكترونية

ألقت برأسها على صدري وأحاطت بيديها ظهري وهي تردد:

- ضمني يا عاصم! امحُ ألمي بحنانك.

تهاوت آخر حصون العقل وأنا ألامسها.. رفعت وجهها لأبصر سقوط النور على ملامحها الآسرة وبشرتها النحاسية.. كانت شفتاها كنافذة نصف مشرعة تغري الرياح بغزو الستائر.. قبَّلتُ عينيها فهزمتْ أنفاسُها بقايا صبري.. حركت ذقني على خدها فقالت:

- لمستك تدغدغ أشواقي.. فلا تعصف بي أيها المجنون!

مررت بشفتي حول شفتيها قبل أن أسقط في ثغر الجنون لأمسك بشفتها السفلى أمتصها كما تمتص النحلة رحيق زهرة بكر تحت غطاء الندى.. لساني بفمها يستخرج كنوز لذتها المخبأة.. ارتوى من ريق أشهى من العسل.. شفاهنا تتعانق كغصنين عجزت الرياح عن فك سرهما.. أسرح على شاطئ ثغرها كطائر بحري يقتات على هدايا البحر المبعثرة على شاطئ المساء.. لا أدري أيهما كان أشد صخبًا: صوت الرغبة في داخلي أم صوت أنفاسها المتلاحقات التي تشعل الحرائق حيث مرت على جسدي.

مكتبة عابث الإلكترونية

أرخِ أيها الليل أستارك حولنا وخـالف موعـد المـساء! أكمـل أيها الليل رقصتك.. فما قيمـة النهـار إذا كـان سـيحرمني منهـا؟! واصلي أيتها الشمس نومك واستريحي ليـوم واحـد أرجـوك.. فهـذا عهد المساء! اصمتي أيتهـا الطيـور حتـى لا تـوقظي غفلـة الـشمس! واصل أيها القلب رقصة الخفقان واحتمل ضربة اللذة بقوة رجل.. لا تمُت فرحًا.. فليس الوقت مناسبًا للموت! تدفقي أيتها الدماء برفق في عروقي حتى لا أبـدو كهمجـي هـذا المـساء! قـف أيهـا الهـواء أو ارحل إذا شئت.. فلا حاجة بي إليك.. فمن أنفاسها يخفق صدري!

وضعت كفيها حول وجهي حتى تحاصر اللذة بين دفتيها.. تقبل شفتي بفوضوية الأمطار وهي تنهال على وجه البحـر فتتنـاثر الرغبة على جسدي كرذاذ المـاء المتنـاثر علـى فـراش الـصخور بعـد غزوة موج.. شفتاها دافئتـان متقـدتان كجمـر تحـت جـسد الـنيران يـصرخ بلـذة الاحـتراق وتتطـاير شـظاياه في نـشوة الحـب.. ففككـت أزرارها كما تفـك النـسائم رداء الـشجر لتكـشف عـن سـر الثمـار.. خبأت وجهي بها كمن يبحث عن مدخل لخارطة سـرية.. لفحـتني رائحة جسدها وتـوارى العطـر خجـلاً.. فلـيس مـن عطـر في الكـون

مكتبة عابث الإلكترونية

يضاهي رائحة الجسد في لحظة عشق.. أستنشق رائحة جسدها فيدور رأسي طربًا بلذتها وهي تضغط على رأسي بين نهديها فلا أطفو أبدًا.. قلت لها:

– من يمنحني حق الموت بجسدك؟ فأنا أولى بسكن عروقك من دمك.

تنهدت:

– اسكنِّي إذًا.. شريطة ألا تغادر أبدًا! أنت محكوم بالإقامة الجبرية في جسدي! فارسم برفق أيها السجين المجنون على جدراني!

حركت شفتيها صاعدة هابطة على عنقي.. فسرى الخدر في كل جسدي بأنفاس تذيب خلايا وجودي.. فتحت قميصي كاشفةً عن صدري وهي تهمس:

– لست وحدك من يحسن فك الأزرار!

مسحت بيديها على صدري كمغمض عينين يتحسس الجدار برفق حتى لا يسقط السقوط الأخير وهي تقول:

مكتبة عابث الإلكترونية

- من أين أبدؤك؟ صدرك مثلك.. مربك لأنوثتي!

حركت خديها على صدري كيَدِ طفل يعبث بحشائش بستان:

- شعرات صدرك تثير جنوني واشتهائي!

ترفع وجهها لتنظر في عيني بأجفان تكاد تسقط وهي تقاوم حتى تظل عيناها مفتوحتين كنافذة الفجر الذي يقاوم أسراب النهار.. ثم تهوي على صدري تحرثه بشفتيها تزرع قبلاتها أزهارًا حمراء فتشعل النار حيث مرت وتوقظ الإعصار بأنفاسها البرية فأحتضنها برغبة رجلٍ يعشق منذ سنواتٍ ثلاث في الظلام.. أعانقها بضمة شوق نمت أغصانه في كهف بارد نضجت ثماره تحت وطأة الحرمان.. قالت:

- تعالَ لترى غرفتي!

أمسكت بخنصري وهي تجذبني بشوق أنثى تقف على حافة الهاوية.. جلست على حافة السرير.. كنت أسمع أنين الوسادة تنادي إلى لقاءٍ تحت جنح الجنون.. أزلتُ بقايا ردائها كما تزيل الرياح بقايا الغمام لتكشف عن جسد القمر.. تساقطت ملابسها

مكتبة عابث الإلكترونية

سكرى وتساقط معها آخر قطرة في كأس صبري.. أتمتم بقبلاتي على حدود مملكتها وهي تموء كقطة تستثير حنان صاحبها.. تنتفض كورقة تهتز تحت ريحٍ جائعة لمسِّ الغصون.

وقبل أن أطرق آخر باب لينكشف السر الأخير وهي مستسلمة لإعصار رغبتي الذي يجتاح مدينتها:

- الآن يا سارة.. أخبريني هل تحبينني؟

- أريدك.. أريدك بكل جوانحي ووجودي.

- الإرادة نية مبيتة وقرار تم اتخاذه من قبل.. أما الحب فقضاء نخضع له شئنا أم أبينا.. هل عرفتِ هذا الحب يا سارة؟

- أنت تصر على أن تزعج ليلتنا.. أما يكفيك أن تكون الأقرب؟ أما يكفيك لتثق بتميزك عندي أن يحويك فراش معي؟ هل ما زلت تشك بأن هناك مساحات بيننا وجسدك يغطيني؟

قبَّلتها قبلة طويلة على جبينها ثم رفعت وجهي ووضعت يدي على خدها لأرفع خصلة سقطت بفعل النوافذ المشرعة على شرفة الجسد.. ومسحت بيدي على شعرها وقلت:

مكتبة عابث الإلكترونية

- أحبك يا سارة.. لكن إذا لم أكن حبك فلن أكون خطيئتك.

أردتك لقلبي وأنا واثق أنه سيرفعك لي.. وهبتك كل ما أملك وتركت كل شيء لأجلك ولن أرضى بعد اليوم بأقل مما وهبت.. أنت ترفضين الحب حتى ونحن نتشارك السرير ذاته! هل تظنين أنني يكفيني أن أمتلك عقلك وجسدك ويبقى قلبك رهين حبك الأول؟ في الحب إما أن نحصل على كل شيء وإما أن نخسر كل شيء.. أنتِ من علمني هذا الدرس يا سارة.

عندما ينبض قلبك بحبي وتستطيعين نطقها من دون تردد ومن دون شك في صدق قلبك.. ساعتها.. وساعتها فقط.. سأمنحك كل أسرار جنوني وعشقي! أنا لا أقبل بمدينة تسقط سهوا ثم تطلب حق الحكم الذاتي! استسلمي لحبي بغير قيد ولا شرط لأرفعك على عرشي متوجة بغير شريكة للأبد.. تلك قناعاتي يا سارة وهذا قراري.. ولن أتراجع.

نهضت من فراشها وهي تنظر لي بعين ذاهلة محطمة الكبرياء.. أعلم أن كلماتي هزَّت أنوثتها وأن موقفي جعلها تنظر لنفسها عارية أمام مرآة الخجل.

مكتبة عابث الإلكترونية

لم أكن أشعر بلذة انتصار لأنها لم تكن خصمًا لي في رقعة شطرنج بل هي حياتي كلها.

لفرط حبي رفضت أن أمتلك جسدها وأخسر قلبها.. أي قيمة أن يجمعنا فراش ولا يجمعنا عشق نجمة في ليلة حب؟ ماذا حققت أنا حين تصرخ لشدة لذتها معي ولا تبكي من شوقها لي في ساعة حرمان؟ لن أكون قد ملكتها بل دنستها.. ودنستها فقط.. وليس هذا هو الحب الذي قاسيت الحرمان في سبيله لسنوات طوال.. فاغفري لي يا سارة.. اغفر لي يا أنا.

نزلت من بيتها بقلب غير الذي صعدت به.. صعدت كصعود الدخان من فم الاحتراق وهبطت كهبوط الليل الحزين ليخبئ دموع الهضاب.. ما زلت في هبوط وصعود معها! يا إلهي متى سأستريح ثابتًا على أرض الحب؟ ليست الأشياء التي نتمناها تحمل راحتنا دائمًا.. فكثيرًا ما نكتشف أن الأهداف التي سعينا وراءها كانت أفدح خسائرنا وأعظم آلامنا.. ما زالت تدفعني رياح القدر لألقى مصيري المحتوم على حافة الحب.. لتكن مشيئة الله!

كان جرحي لها نافذًا في عمق الكبرياء.. وكما توقعت.. لم

مكتبة عابث الإلكترونية

تتصل بي أو تطلب مقابلتي كما كانت تفعل كثيرًا في الفترة الأخيرة.. فقد رحلت عنها بعدما شرعت كل أبوابها لكنها أغلقت نافذة القلب وأنا أرفض الدخول إلا عبر بوابته الرمادية.. كل الأبواب غيره كانت ستفقدني إيماني بذاتي وتقديسي لحبي لها.. كنت أرضى أن أخسرها ولا أخسر حبي لها.. هكذا كانت اختياراتي دائمًا بين خسارتين!

لم أتصل بها أنا أيضًا.. فقد كنا بحاجة لمساحة من الفراغ بيننا حتى يعيد كل منا ترتيب أوراقه ويداوي جراحه من أثر ارتطام جسدين في لحظة لذة.. بدافع الحب من أحدهما وبدافع الشوق من الآخر.

أصبحت أكثر اهتمامًا بدراسة الماجستير.. أقضي وقتي بين القراءة والمقهى وأطمئن على أمي هاتفيًا من وقت لآخر.. وجاء أخيرًا موعد مناقشة رسالة الماجستير وحصلت على تقدير امتياز مشفوع بمنحة لدراسة الدكتوراه في إحدى جامعات لندن.. ترددت كثيرًا في قبول منحة السفر.. كنت أخاف دائمًا من الغربة وما زال شبح مأساة أخي ماثلاً أمام عيني.. صرت أكره بلاد الغرباء ولست

مكتبة عابث الإلكترونية

أرتاح في بلادي أيضًا.. استشرت "محمد" في الأمر فأشار بأنها فرصة كبيرة لأحصل على شهادة الدكتوراه وفي الوقت نفسه لأتخلص من آلامي بعيدًا عن وطن الآلام.. لكن ما زالت قناعاتي بأن نار هذا الوطن خيرٌ ألف مرة من جنة الغربة.. ما أعجب أمرك يا مصر.. مهما لاقينا على يديك لا نرضى بديلاً عنك.. أعشق طرقاتك المكتظة بفقرها وجدرانك القائمة على أسرار المظالم وأُفضلها على بلادهم الباردة الخالية من بسمة مصرية ونكتة مصرية.. وطعنة مصرية أيضًا.

كانت علاقة محمد بعلياء تشعرني بشيء من الرضا.. فكثيرًا ما تتحقق أحلامنا الخاصة في مشاريع أفراد آخرين! كان حبهما الذي ينمو بهدوء يمنحني سعادة الرضا بأني وإن فشلت في إسعاد قلبي فقد نجحت في زرع الحب في قلب أقرب الناس لي: محمد وعلياء.. كنت أدعو الله أن يعوض علياء عن جرحي لها وأن يعوض محمد عن زوجته.. كان حبهما جائزتي الكبرى.. سموتُ فوق مشاعر الغيرة التي ينفثها الشيطان في نفسي.. من وقت لآخر يقول لي: كيف تترك الفتاة التي أحبتك بصدق لغيرك؟ كنت أقمع

مكتبة عابث الإلكترونية

نفسي بتراتيل الوفاء! قم أيها الحب بينهما ولتظلل عليكما يد السماء.. كن أيها القدر رحيمًا بهما ولا تفجعني في كل من أحب.. اقترب منها يا محمد وانزعي حبي من قلبك يا علياء فعلى الباب من هو خير لك مني.. فأنا لم أعد رجلاً يصلح إلا لأردية الحزن.. فاعزفي يا قيثارة الأفراح ألحان الحب على أوتارهما.

حدثني محمد بخجل كبير وهو يخبرني عن ثقته في حبه لعلياء منذ زمن بعيد حتى قبل أن أفارقها.. يقول لي:

- اغفر لي يا عاصم.. ولا تعتبرها خيانة.. فقد كنت أحبها في صمت وأحترم علاقتكما.

فابتسمت له:

- على العكس تمامًا يا صديقي.. هذا يسعدني أكثر.. ولو كنت وليًّا لعلياء ما كنت لأوافق على أحد سواك.. لكن لا تحبس حبك في قلبك يا محمد.. اطرق أبوابها ولا تتردد! لن تخسر شيئًا.. على الأقل لا تكن مثلي.. اترك الأرض الرخوة وبحر الرمال ولا تقف إلا على صخرة اليقين.

مكتبة عابث الإلكترونية

لم تمضِ أسابيع قلائل حتى جاءني محمد تتراقص الفرحة على ملامحه:

– أخبرتها يا عاصم وقالت لي إنها تشعر بحبي هي الأخرى في قلبها.. لكنها خائفة من أمر أربكني.

– أي أمر؟

– خائفة أن أحاسبها على حبها القديم لك!

– وهل يمكن أن تفعل هذا؟

– مستحيل! علياء كبيرة في نظري.. وإخلاصها القديم لك كان يزيدني احترامًا لها.. ليس من حقي أن أحاسبها على صدقها ووفائها.. ما دامت أحبتني أخيرًا فلماذا أبعث شعورًا قد انتهى في قلبها؟ ليست القضية أن يكون لها حب أول.. القضية أن أكون أنا حبها الأخير.

أسعدتني كلماته:

– هذا أنت يا محمد.. كما عرفتك دائمًا نبيلاً كريم الرجولة.. أدعو الله أن يبارك لكما.

مكتبة عابث الإلكترونية

– ستباركنا أنت أيضًا يا عاصم؟

– أقسم لك لم يعد هناك أي شيء يسعد قلبي إلا حبكما.. فامنح قلبي راحته وأتم أمرك.. أنصحك أن تتخذ خطوات عملية.

– أخاف أن يتحفظ أهلها على ارتباطي بها.. لا تنسَ أنني أرمل ولي طفلة.

– لا أظن.. فإن هذا لا يعيبك.. ستكون علياء أمًّا لطفلتك وأنيسًا لوحدتك وحبًّا لقلبك.. فلا تجعل الأوهام تعصف بحبكما.. توكل على الله يا صديقي ولتكن مشيئة الله.

تمت الخطبة سريعًا.. لكني لم أذهب إلى الحفل.. عاتبني محمد كثيرًا على عدم حضوري.. قلت له:

– أنا أحترم خصوصية العلاقة بينكما وخشيت أن يكون وجودي مزعجًا لعلياء.

– هل تعرف أن علياء أكدت عليَّ أن أدعوك لحفل الخطبة؟ أنت أخي يا عاصم ولست مجرد صديق وأثق أنك أخ لعلياء أيضًا.. أليس كذلك؟

مكتبة عابث الإلكترونية

- بالطبع.. لكن هذه كانت مخاوفي فاعذرني.. أعدك أن أكون أول الحاضرين في حفل الزفاف.

أثناء تصفحي للجريدة التي تعمل بها سارة.. وجدت لها خاطرة بعنوان "متعطشة إليك".. أربكتني وأشعلت حرائق القلق والحيرة في صدري:

"أيها الراحل عني.. حتى متى تترك برد المساء يسحقني؟ تدور حولي كل العيون ووحدك من أبحث عنه.. معلقة أنا كورقة تحت ثوب الخريف.. فلا تجعل سقوطي إلا بين يديك.. اغفر لي فقد غفرت لك.. أنثى معطلة أنا من دونك.. وحدك من تملك شفرة الولوج لقلبي.. فحتى متى سيظل قلبي مغلقًا على أسرارك؟ أطلق خيول الحلم لتفتح أبواب الرجاء.. سئمت من كثرة النداء فمتى تلبي؟ تقدم من أجلي لأعد لك عشاءً بمذاق جسدي وقهوة برائحة الحب.. لا تطرق الباب لأني أقف في النافذة أنتظرك كل مساء!"..

كلماتها ألقت بي في بئر من الحيرة.. أربكتني حروفها ونداؤها.. ترى لمن كانت كلماتك يا سارة.. فحروفك مراوغة مثلك؟ هل هذا الشوق لي أم لرجلك الراحل عنك؟ يعذبني وجودك

مكتبة عابث الإلكترونية

ويعذبني غيابك.. وهاهي حروفك تعذبني أيضًا.. أنثى للعذاب أنت يا سيدة الانتقام! إذا كان حبك له ما زال مشتعلاً فلماذا حملتني لفراشك وفتحت أبوابك لي؟ هل أرسلت كلماتك تلك لتزرعي أشجار النار بصدري؟ هل يمكن أن يكون حبه ما زال ينبض بداخلك.. أم أنها رغبة الانتقام المتأصلة بروحك؟ هل تريدين إذلال كبريائي حتى يُشفى جرح كبريائك؟ مخطئة أنت يا سارة.. أنا ما أردت إذلالك! رفضت أن أحصل عليكِ قبل أن تمنحيني قلبك.. فلستُ ممن يلتفتون إلى روعة الثمار وينسون قدسية الجذور؛ لأن كل الثمار تسقط في النهاية ووحدها تبقى الجذور شاهدة على حياة الأغصان.. لماذا هذا الظلم؟ لماذا تغسلين جراحك بدمي؟ أعرفك أنا جيدًا.. أنت سيدة القتل من أجل الكبرياء.. فهل حان دوري؟ بأي طريقة ستجهضين حبي من رحمك؟ هل ستمنحين جثتي حق الدفن الكريم بمقبرة قلبك أم ستصلبين قلبي على أعمدة الانتظار حتى تأكل الطير من رأسي؟

أين أنت يا يوسف الصديق لتعبر لي رؤياي فإنني أرى امرأة تذبحني بشريط من حرير! نبِّئني أيها الصديق.. هل هذا زمن

مكتبة عابث الإلكترونية

العذاب والسنين العجاف؟ ومتى يأتي عام يغاث فيه قلبي؟

قررت أن أقطع الشك باليقين لأعرف لمن كانت كلماتها.. لي أم له.. اتصلت بها وكانت أولى كلماتها:

- أزعجتك الخاطرة.. أليس كذلك؟

- أنت تعرفين دائمًا من أين تؤكل الكتف.

- هل تغار يا عاصم؟ هل تحبني؟ هل ما زلتَ مقتنعًا أن لك قلبًا؟ هل حصلت على ثأرك؟

- ما هذا الظلم يا سارة؟! أنا لم أفكر لحظة في إيذاء مشاعرك.

- نعم لم تفكر.. لكنك فعلت ونفذت!

- أردتك حبيبة لا عشيقة.

- أنت تجرحني أكثر بقولك هذا.. تشعرني أنني ساقطة التقيتها في الطريق.

- بل أنت حبٌّ تعثرت به في طريق القدر.. حبٌّ هربت منه فاصطدمت به ولم أستطع النهوض ثانية.

مكتبة عابث الإلكترونية

- فلماذا أردت إذلالي؟!

- بل أردت حبك فقط.. وهذا ما لم تفهميه أبدًا!

- أنت لم تترك فرصة لأثبت لك حبي.

- هل كان يجب أن أنتظر حتى يلقي النهر بجثتي إليك حتى تعترفي بحبك لي؟ يبدو أنني عجزت حقًّا عن محو بقعة الحب القديم في قلبك.

- أنت مخطئ يا عزيزي.. أين ذهبت فطنتك أيها الأديب؟! كيف غاب عنك نبض صوتي؟ وكيف عجزت عن قراءة عيني؟ هل تحتاج لكلمة بحجم "أحبك" لتعرف أنك أصبحت تسكنني؟ هل تظن أنني معتادة على اقتياد الأصدقاء لغرفة نومي؟

- هل تحبينني يا سارة؟

- ما زلت مصرًّا على إشباع غرورك وإرضاء كبريائك بهذه الكلمة فقط.. إذا كان هذا ما يرضيك فاسمعها إذًا: نعم أحبك.. أحبك بكل قلبي وملأ حبك كل مساحاتي.. وبُعدك عني طيلة الأسابيع الماضية جعلني أعرف كم أعشقك.. وجعلني أيضًا أدرك كيف ستكون عذاباتي من دونك.. وأنا قررت ألا أتعذب مرة

مكتبة عابث الإلكترونية

أخرى.. لقد أصبحت حبي الأخير يـا عاصـم! هـل تتـذكر أول لقـاء بيننا عندما قلت لك إن أروع ما في الحب أن يظل مشروعًا بغير أرض وحلمًـا بغـير واقـع.. فالحقيقـة تفـسد قلوبنـا.. والممارسـة تقتـل شعورنا.. وأنا لن أضحي بكل حب أحصل عليه.. سأظل أحبـك لكـن دون أن أكون لك أبدًا! نعم.. لن أكون معك حتى لا ترحل عني.. ألم أقل لك إنني امرأة موعودة بقوافل الرحيل؟ فاذهب أنت واتـرك لـي حبك!

– أنت تبحثين عن مبرر في خزانة الكلمات لتبتعدي عني!

– لا يا عاصم.. ألم تقل وأنت على سـريري وتتوسـد صدري بأنك لن تساوم على قناعتك؟ أنا أيـضًا تعلمـت منـك هـذا الـدرس.. فلست وحدك التلميذ النجيب هنا! مقتنعة أنا بأن الواقع سيحرمني منك.. لذا قررت أن أظل محتفظة بحبك في حقيبة الخيـال وخزانـة القلب.. وهذا قراري الأخير.. أحبك ولن أكون لك أبدًا.. ولن تراني أبدًا.. سأعيش فيك لكن لن أعيش معك.

مرت دقائق من الصمت.. هاهي سارة تعترف أخيرًا بحبها في الوقت ذاته الذي قـررت فيـه الرحيـل الأخـير.. لا بـأس.. فقـد

مكتبة عابث الإلكترونية

اعتددت على الفقد وأدمنت الخسارات الكبيرة! كلما عظمت أحلامنا فدحت خسائرنا.. فلا تشتعل الحرائق الكبيرة إلا في المشاريع الكبيرة.. فلتسقط أيها السقف.. فما عاد يسكن تحتك أحد.. ولتحمل أيها القلب حبك وتمضِ وحيدًا في نفق الظلمة والصقيع.. ودعتها قائلاً: كوني حيث شئتِ يا سارة فسأظل وفيًا لحبي لك لأنه كان الحب الصادق.. ولن تكتب أقلام الحب على قلبي حروف اسم سواك.. وحدك صفحتي التي أرتلها وكلما انتهيت منها بدأتها من جديد.. صفحة أنت لا أستطيع أن أقلبها فأعرف غيرها ولا أقوى على تمزيقها فأتخلص منها.. فبعض الصفحات تكتبنا ولا نكتبها.. أحبك يا سارة.. فتذكري هذا جيدًا! وتذكري دائمًا أنك صادفت الحب الصادق ثم تركتِه يمر من بين أصابع غرورك وكبريائك الظالمة! ثم أغلقت الهاتف.. أغلقت نافذة الإعصار الأخير.. فما عادت حجرتي تقوى على مواجهة رياح الشمال.

قررت العودة للعمل مرة أخرى.. فقد كان فراغي لأجلها هي.. كانت كل ما يشغلني.. تملأ كل مساحاتي وتكتب بمداد من النار على صفحتي الخضراء! لأعود إذًا إلى أنين المرضى وشهقة

مكتبة عابث الإلكترونية

الجراح.. فأنا سيد الجراح وطبيبها العاجز عن مداواة جرح قلبه.. كلما عالجت جرحًا جدَّ في قلبي جرح أشد ألمًا وأقسى توحشًا.. مجروح بأخي المقتول وأمي الغائبة ووطني السجين.. ومجروح بك يا سارة! لا بأس يا قلبي.. واصل حتى تمتلئ الكأس! هل هذا هو الفصل الأخير على مسرح الألم؟ هل تلك هي النهاية التي انتظرتها طويلاً؟ في الوقت الذي جاء فيه الحب إذا به ينسحب إلى الأبد!

ألقت لي سارة بحبها كشهاب أنار السماء وصفقت له النجوم ثم سقط رمادًا تذروه رياح اليأس العاتية.. جاء حبها كطفل انتظره أبوه العقيم عشرين سنة.. فلما أتى وابتسم له قال: وداعًا يا أبي.. فما جئت إليك إلا لأرحل عنك. أشبعي كبرياءك وأطعمي انتقامك من قلبي يا سيدة القتل! ارحلي فإني مثلك قررت الرحيل! وبعض النهايات إذا لم نختَرها بأيدينا أجبرتنا عليها يد القضاء! أحببتك بصمت ولسوف أرحل بصمت أشد قداسة! لن أقول سأنساك لأني سأكون كاذبًا جدًّا؛ لأن نسيان إخفاقاتنا هزيمة أكبر! فالكريم ينظر لجرحه ولا يبكي.. يتحسس ندباته ويعري ضعفه أمام الشامتين ليلقى مصيره بشجاعة طيور البطريق التي تمضي نحو

مكتبة عابث الإلكترونية

البحر لتنتحر وهي تمارس رقصة الكبرياء! ولتهنَئي يا علياء ونامي قريرة العين.. فقد أرسلت السماء من يذيقني من الكأس ذاتها التي قدمتها إليك.. لسوف أشاركك الليلة نخب الجراح الذي شربته ليلة في صحة الوطن ذات سُكر والليلة سأشرب في صحة قلبي المطعون وأملي الذبيح.

ولست أدري.. هل ستطوي سارة حقًّا صفحة قلبها على حبي؟ وهل ستسدل الستار على مسرح الحب الأخير.. أم أنه كلما انتهى عرض أقامت عرضًا جديدًا فما زالت شهوة الانتقام في شوق لمزيد من الدماء؟

مكتبة عابث الإلكترونية

الفصل الخامس

واشتعلت حرب غزة.. وصبَّت إسرائيل شآبيب الجحيم على رءوس الأطفال.. انتفضت الأمة يحملها بركان الغضب فقمعت الأنظمة صوت الصراخ وكممت فاه الأنين.. أي ظلم أن تطلب من الذبيح ألا يصرخ حين يسافر السكين بين الشرايين؟

اتصل بي محمد لنشارك في مظاهرة كبيرة تنطلق من الأزهر فقلت له: انتهى وقت الصراخ.. فالميت لا يفرح بكثرة المعزين فيه؛ لأن هذا لن يعيد له حياته السليبة.. تظاهروا أنتم.. أما أنا

مكتبة عابث الإلكترونية

فسأذهب إلى غزة.. إن لم أستطع حمل بندقية الشرف فسأحمل مشرط الشفاء لأداوي أطفال العزة السليبة الذين منحونا الكرامة بأيديهم الناعمة وهي تحمل حجارة الصمود في وجه العالم الظالم.

- ولكن السفر إلى غزة قد يكلفك حياتك أو على الأقل حريتك.

- حتى متى يا محمد سنظل نطلب البضاعة بغير ثمن؟ من أراد أن يحصل فليدفع.. وأنا سأدفع كل ما أملك لأنني لست من هواة الادخار.. فقد خسرت كل شيء ولم يبقَ لي إلا الإيمان بهذه الأوطان وتحريرها. قد أرسلت إلى نقابة الأطباء طلبًا بالالتحاق بالمتطوعين للعمل في مشافي غزة.. وسأترك معك وصية لأمي.. عليك أن تكتب وصيتك إذا قررت أن ترحل إلى أوطاننا العربية.. فالموت ينتظرك على كل المحاور.. إذا لم يكن بيد العدو فبيد الصديق.. إذا لم أعد فسلمها لها.. كتبتها في جوف الليل بعد أن حزمت حقائبي للسفر في صباح اليوم التالي: "أمي.. هذه وصيتي إليكِ.. إذا وصلتك فاعلمي أن روحي أصبحت في يد بارئها.. قد ذهبت يا أمي إلى هؤلاء الذين تخلى عنهم العالم ليقابلوا بضعفهم وفقرهم وجوعهم.. لن أصفق

مكتبة عابث الإلكترونية

لهم يا أمي.. بل سأشاركهم نخب الدماء والدموع.. لا تحزني لأجلي.. إن جاءك خبر موتي أليس جديرًا بالأمهات أن يفخرن بأبنائهن إذا بذلوا أنفسهم لأجل الأوطان؟ فمهما لاقينا في أوطاننا فلن نتخلى عنها أمام العدو.. اغفري لي يا أمي.. فلن يستريح ضميري وأنا أنام في فراشي وأطفال غزة ينامون على فراش الموت تقذفهم السماء ويرجمهم البحر.. لقد خسرت قلبي يا أمي ولن أخسر أيضًا ضميري وشرف الإنسان بداخلي.. اغفري لي أيتها الحبيبة واسألي الله في سجود الفجر أن يمنحني يمين رحمته..
ابنك عاصم".

سلمت الرسالة لمحمد في صباح اليوم التالي ورحلت إلى سيناء ومنها إلى غزة.. ما كنت أتوقع ولا أتخيل ما رأته عيني.. كانت الفاجعة أبشع من تصور حتى الشيطان.. أحرقت الطائرات كل شيء وقذفت الرواجم والمدافع كل بيت.. في كل زاوية قتيل وفي كل ركن جريح. لم تعد السماء تسع شيئًا غير طائرات النار.. كل مَن هنا يقاتل.. نساء يحفرن الخنادق وعجائز يحملن الحجارة للمتاريس.. شباب وشيوخ كلهم يصرخ بالتحدي.. وبين العرق

مكتبة عابث الإلكترونية

والدماء تبزغ عيون الكبرياء وملامح اليقين.. لا أسمع منهم إلا كلمة "صامدون.. نموت ولا نهان".

كم هي عجيبة هذه الأمة.. تمرض لكن لا تموت أبدًا! من بين براثن الهزيمة تنطلق بشائر النصر.. ومن رحم الظلماء يولد الضياء ويلوِّح الأمل للصامدين.. المحنة وحدت صفهم لا يعلن أحدهم عن انتمائه لفصيل ولا حزب.. الكل هنا يقاتل ويموت دفاعًا عن أخيه.. وحدهم الساسة يفرقون بيننا.. ووحده حب الأوطان يوحد بيننا.. ويختبئ الذين عذبونا خلف قصورهم لتدفع الأمة ثمن خياناتهم باهظًا جدًّا.

ذهبت إلى مشفى غزة الرئيسي.. كنا سبعة من مصر ومثلهم من السعودية والإمارات والأردن.. كنا نشعر بالخجل ونعتذر نيابة عن أوطاننا التي تركتهم لمواجهة المصير وحدهم بصدر عارٍ وظهر يشكو خيانة الشقيق. كان هناك عجز كبير في الأطباء.. وعدد الجرحى في تزايد كل دقيقة.. أقدام مبتورة وأجساد ممزقة.. فقد توحشت إسرائيل وأطلقت ذئاب الغدر لتعزف لحن الموت على قيثارة التلمود.. ينشدون قصائد الخراب على مسامع الأطفال

مكتبة عابث الإلكترونية

الأبرياء والشيوخ الضعاف والأرامل واليتامى.. تبسم الناب الأزرق شامتًا في وجه البراءة.. وزحفت حيات الليل الغادر على أحلام العصافير.. الدماء تغطي أغصان الزيتون.. والدخان يحجب وجه القمر.. اختفت الطيور الصادحات وامتلكت الغربان والخفافيش سماء السلام.

بين الموت والظلام نعيش.. كنا نعمل لعشرين ساعة في اليوم.. ولو استطعنا لواصلنا الليل والنهار.. فيقظتنا كانت تعني انتشال طفل من بين أنياب الموت ومنح الحياة لعجائز في الرمق الأخير.

استضافتني في منزلها أسرة مكونة من ثلاثة أبناء أصغرهم في العشرين من عمره وأكبرهم في مثل سني.. إضافة إلى أمهم العجوز.. كنت أرى وجه أمي الطيب في عينيها وكلماتها الحانية وهي تقول لي:

– "الله يبارك فيكم يا عاصم يا ولدي.. ليس لكم ذنب في هذا العذاب".

– ليس ذنبنا يا أماه.. بل هي جريمتنا.. فنحن من

مكتبة عابث الإلكترونية

أسلمناكم بصمتنا وخوفنا.. وإذا كانت أوطاننا قد شاركت العدو في حصاركم ومنعتكم الطعام والدواء فلن تستطيع أن تمنعنا من مشاركتهم المصير ذاته.. صدقيني كل من بمصر يتمنى أن يكون مكاني الآن.. ما زالت الشعوب مؤمنة بوحدة المصير مهما وضعت الأنظمة آلاف السدود وترست الحدود فلن يمنعوا الماء من حق الجريان.

انقطع التيار الكهربي عن المشفى ونفد معظم الدواء ونحن نعض أصابع العجز أمام تضاعف عدد الموتى.. بعضهم ينزف حتى الموت لا نجد مرتقة نخيط بها جرحه ولا ضمادة تخفف نزفه ولا مسكنًا يخفف ألمه! فلتموتي يا فلسطين بيد العرب قبل يد العدو.. واملئي خزائنك يا بلاد العرب وشيدي قصورك.. نافسوا الغرب في كل سبل الرفاه واتركوا أطفال فلسطين مائدة عامرة للموت.. فهذا زمن الخيانات الكبيرة.. اسقطي يا غزة كما سقطت غرناطة.. وابكوا يا أمراء العرب على وطن يذبح.. ابكوا كالنساء على وطن لم تحافظوا عليه كالرجال.

ذهبت إلى المقاتلين. قلت لهم:

مكتبة عابث الإلكترونية

- إن سلبونا المشرط حتى لا نداوي جراحكم فلتعطونا أنتم بندقية لنقاتل عدوكم موتًا بموت ودمًا بدم.

قال قائدهم:

- أنت في مكانك لا تقل عنا.. فحاجتنا إلى طبك أعظم من حاجتنا إلى بندقيتك.. أرجوك نحن لا نقبل أبدًا بموتك في حرب لا ناقة لك فيها ولا جمل.

- يا شقيق.. لا فرق بيننا.. فهدمكم هدمنا وجرحكم جرحنا.. فلا تحرمني شرف العربي وأنا أشاهد سقوط مدن العرب وكرامتهم!

وبعد إلحاح وافق على انضمامي لصفوف المقاومة.. دربوني على إطلاق النار.. وخلال أيام ثلاثة صرت ماهرًا إلى حدٍّ كبير.. كنا نواجه الدبابات المترسة ببنادقنا البسيطة.. أرى رجالاً جاوزوا الستين يمسكون ببنادق قديمة وهم يرددون: "والله لن يمروا إلا على أجسادنا".

أصبح القتال وجهًا لوجه من حارة لحارة ومن بيت لبيت.. دخلت قوة يهودية إلى خان يونس فأخلى المقاتلون لهم الطريق حتى

مكتبة عابث الإلكترونية

يستدرجوهم إلى الأزقة الضيقة.. وما إن دخلوا حتى هبطنا عليهم كصواعق السماء في ليلة غضب تزمجر فيها الرعود وتصب السماء لعنات الإله على الظالمين.. الليل ينادينا للقصاص والرياح تعصف أن حطِّموهم! الكل يقاتل.. النساء يلقين بالحجارة من فوق الأسطح.. المقاومون يصبون الرصاص في صدر الغدر.. سقط سبعة من اليهود قتلى.. تدخلت طائرات الأباتشي هدية أمريكا لأطفال غزة لتنهي المعركة.. في دقائق تهاوت المنازل وسقط عشرات من المقاتلين.. أصبح الموت يحيط بنا بعدما أحاط بهم.

رأيت جنديًّا إسرائيليًّا يختبئ في زاوية.. وما إن التقت عيناي عينيه حتى هرولت إليه وأنا أردد: حرام عليَّ الحياة إن نجا مني.. كان يرتعد من الخوف وهو مدجج بأقوى سلاح.. فماذا تفعل البندقية المذخرة في يد الجبان المرتعش؟ ألقيت بغضبي عليه أزرع أظفاري في وجهه وأغرس أنيابي في عنقه.. كدت ألتهمه.. ألتهم وجوده.. أنهي حياته.. دولته.. كيانه.. أضربه بغضب الوطن وحزن الوطن وجرح الوطن.. اقترب الموت منه وهو تحت سطوة غضبي يخضع.. حتى جاء ثلاثة من المقاومين يحاولون استخلاصه

مكتبة عابث الإلكترونية

من بين يدي وأنا أصيح: لن أتركه إلا قتيلاً.. فقال أحـدهم: اتركـه من أجل غزة فأسره سيفيدنا أكثر من قتله.. أرجوك سنضمن بأسـره حريـة كـثير مـن سـجنائنا.. تركتـه مجـبرًا.. فمـن أدرى مـنهم بحاجتهم؟ كنـت أريـد أن أشـبع قهـري بقتلـه وأطفـئ نـار صـدري بإنـهاء حياتـه.. أردت أن أقتل فيه كل من ظلمونا وسجنوا أوطاننـا.. أردت أن أهزم فيه النظام العالمي الذي يبكي لأجل هرة تموت فـوق شجرة في غابة فيلادلفيا ويصفق لقتـل أبنائنـا.. أردت أن أقتـل فيـه أنظمتنا الفاسدة التي باعتنا في سوق العدو بلا ثمـن.. أردت أن أقتـل قَتَلة أخي وقَتَلة وطني.. لكن لا بأس.. لتعِش أيها العـدو مـا دامـت حياتك ستمنح الحرية لمن يعيشون في ظلام سجون بني جلدتك.

رجعت إلى البيت الذي يستـضيفني فوجـدت أمهـم العجـوز وحولها نسوة كثير.. فقد سقط أبناؤها الثلاثة قتلى بعدما احترقـت أجـسادهم بقنابـل الفـسفور وهـي تقـول: الحمـد لله الـذي شـرفني بشهادتـهم.. لا تحزن لجرحي يـا عاصـم.. ففلـسطين يـا ولـدي هـي العروس وقـد قـدمت أبنـائي مهـرًا لعرسـها.. فـافرح ولا تبـكِ مـن أجلي.

مكتبة عابث الإلكترونية

رجعت إلى المشفى لأشارك في ميدان آخر.. فهذا زمن الحروب المفتوحة في كل مكان.. زمن تفرح فيه الأمهات بموت الأبناء.. فالموت بكرامة خير من حياة الذل والهوان والاستسلام.

انتهت الحرب في غزة.. وهدأت عواصف الدمار.. وأدركت إسرائيل أنهم لا يمتلكون هزيمة شعب تفرح فيه الأمهات بموت الأبناء.. أي جيش في العالم يستطيع قهر أمة قررت أن تموت في سبيل عزتها؟ ستسقط كل أسلحة الردع أمام سلاح الإرادة الصادقة.. سحبت إسرائيل جنودها يجرون أذيال الذل والعار بعدما عجزوا أمام الأطفال والنساء الذين يقاتلون بصدور عارية.

قريبًا جدًّا سينفرط عقدك يا إسرائيل! ضاع أثر السحر في ترنيمة التوراة وتعرت سوأة السامري.. سقط السحر والساحر.. إن جيشًا وقف عاجزًا أمام مدينة بلا أسوار بلا جيوش بلا سلاح لهو جيش ضعيف.. وإن مدينة استطاعت أن تنتزع حريتها بسواعد عارية إلا من العزيمة لهي مدينة جديرة بأن تصبح دولة ودولة جديرة بأن تصير أمة.. حجارة حطمت إسرائيل فكيف ضاعت الديار يا جيوش العرب؟ على الرغم من كل ضعفنا وهواننا ما زالت

مكتبة عابث الإلكترونية

أمتنا تعتصر النصر من الهزيمة وتختطف النور من فم الظلام وتنتزع العزة من بئر المذلة.. خطوة أخرى أو خطوتان.. دمعة ودمعتان وتتحررين أيتها الأوطان.. فآمني أيتها الشعوب بمصيرك السعيد واطلبي النصر بصدق العزائم لتقتطفيه من سفوح المحال.

رجعت إلى مصر وما إن وطئت قدمي أرض سيناء حتى استوقفتني الشرطة واقتادوني إلى القاهرة في عربة السجناء.. بأي تهمة ستسجنني يا وطني؟! بتهمة الانتماء.. بتهمة الحب.. أم بتهمة العروبة؟

وقفت أمام ضابط التحقيق فكان سؤاله الأول:

– لماذا سافرت إلى غزة؟

– ولماذا قعدت أنت ولم تسافر؟ أنا من يحق لي مساءلتك وليس أنت.

ضربني أحد الجنود بعصا غليظة أسالت الدماء على وجهي.. اضرب أيها الوطن أبناءك.. حاسبني على حبي لك.. فأنا متهم لديك بحفظ كرامتك.. فما جزاء من أراد بك خيرًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم.. أرسل أيها الوطن المخدر قطعان الذئاب

مكتبة عابث الإلكترونية

لسحل أسودك.. فهذا زمن العواء وليس زمن الزئير.. متهم أنا بالتعملق في زمن الأقزام والصدق في وطن الكذابين.

تذكرت تلك الأسطورة القديمة التي تحكي أن قرية الصادقين الشجعان تلوث نهرها بداءي الكذب والجبن فأصبحت القرية تهذي بالجنون وتتحدث بغير الحق وتسمي الخيانة سلامًا والقهر أمنًا والجبن وداعة والوشاية أمانة! فلما حرّم قائدهم عليهم أن يشربوا من النهر المدنس وجد أن كل من حوله قد تلوثوا بداء الحقارة.. وتقدم إليه وزيره الأمين؛ إذ كان الوحيد الذي لم يشرب من نهر الكذب.. فقال للقائد: "إما أن تظل على نقائك فيقتلوك وإما أن نشرب سويًّا كأسين من النهر لنصبح مثلهم نتحدث بكذبهم وندجل معهم ونقلب الوجوه لنرقص على كل الحبال". لست أدري ماذا فعل هذا القائد النبيل.. أقف الآن موقفه.. يعرض عليَّ الظالمون كأس المهانة لأتجرع نصيبي من الصمت فيرضوا عني أو أظل صائمًا عن حقارتهم فينزلوا بي سوء العذاب. أيها القائد قل لي بربك هل شربت الكأس لأشرب معك أم أنك اخترت أن تموت بيد قومك حتى يوقظهم موتك ذات يوم؟

مكتبة عابث الإلكترونية

قام الضابط عن مكتبه وتقدم نحوي يدور حولي مثلما تـدور الضباع حول أسد جريح تبحث عن أضعف ما به لينهشوه حيًّا.. يـا إلهي ليتهم لا ينتبهون لقلبي.. فهـذا دائـي الـذي لم أجـد لـه دواء وضعفي الذي يفقدني قوتي.. أرجوكم لا تنظروا داخل قلبي حتى لا تبصروا وجه سارة.. سارة التي أحببتـها فهجرتني.. مثلـك هـي يـا مصر كلما قدمت لها يدَ الحب لوَّحت لي بيد العذاب.

سألني الضابط:

- هل تنتمي إلى الإخوان؟

- بل أنتمي لمصر.

ضحك ساخرًا:

- هل ما زلتم ترددون هذا الكلام؟

- ألم تزل مصر موجودة أم تراكم اعتقلتموها هي الأخرى؟

- هل تظنون أنكم وحدكم من تحبون مصر؟ أنا أحقـق معـك الآن من أجلها لأنك تعرض أمنها للخطر.

- كذبت.. فكل طاغية يسلخ الأمة بحجة حفظ الوطن.. لكن

مكتبة عابث الإلكترونية

ما عاد كذبكم ينطلي علينا.. ما عاد السجين يؤمن بـصدق الـسجان.. أي خطر فيما فعلت؟ ما الذي يعرِّض مصر للخطر حين أداوي أطفال غزة وأستنقذهم من بين موت اليهود؟ أنا جرَّاح أداوي جرح الأوطان الدامية على أيديكم؟

- اخلع ملابسك.

فخلعت قميصي.

- لا.. كلها.. أريد أن أراك كما ولـدتك أمـك حـين فرجـت قدميها أمام طبيب مثلك.

جردوني مرغمًا.

عروني كيـف شـئتم فقـد عـريتم عـورة الـوطن مـن قبلـي.. سقطت أوراق التوت عن سوأة آدم لأنه أكل من شجرة المعصية.. فهل تسقطون ورق التوت عني لأني أكلت من شجرة الـوطن؟ أي جريمـة فعلت حتى أدفع الثمن؟ أي عارٍ أن يحاكم الخونة أمانة الأمناء! مـا زلت أسمع الصيحة القديمة من حناجر المدنسين: "أَخْرِجُوا آلَ لُـوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ".. نعم أخرجونا مـن مـصرنا؛ لأن مرآة الشرف تفضح وجوه الخـزي.. والجمـال يعـري سـوأة القـبح..

مكتبة عابث الإلكترونية

أنتم تسقطون رداء الوطن قبل ردائـي وعريتمـوه قبـل أن تعرونـي.. ففي مصر نحن لا ندفع ثمن أخطائنا فقـط بـل كـثيرًا مـا نـدفع ثمـن فضائلنا أيضًا.

مكثـت في المعتقـل لـشهور بغـير تهمـة أعرفهـا ومـن دون محاكمة.. لا فرق عندي بين سجن يمتد بين أربعـة جـدران وسـجن يمتد من النهر إلى البحر ما دام السجان واحدًا والتهمة معدة سلفًا: رفض الخـضوع ومخالفـة دسـتور الـصمت. طـاف بخـاطري "هاشـم الرفاعي".. ذاك الشاعر الـذي قتلـه سـجان سـابق بالتهمـة ذاتهـا: تهمة الضجيج.. تهمة الكفر بآلهة الصمت في زمن الطغاة. وفي تلـك اللحظة الرمادية التي تمر بصدر كل ثائر تردد في أذني قول هاشم:

"ما الذي بالثورة الحمقاء قد أغراني؟

ما ضرني لو قد رأوني مثل الجموعِ أسيرُ في إذعانِ؟

وهل سأكون في تاريخنا متآمرًا أم هادمَ الأوثان؟

كل الذي أدريه أن تجرعي كأس المذلة ليس في إمكاني"..

هل دفعت ضريبة حبـك يـا مـصر أم أن فـاتورة الجـراح مـا زالت مثقلة بثمنها الباهظ؟ هل ارتكبت حماقة حين صرخت بـ"لا"

مكتبة عابث الإلكترونية

حين يردد الجميع "نعم"؟

ما قاتلت في غزة إلا من أجلك يا مصر.. فهل جنايتي أني أردت أن أحمي الثور الأبيض بإنقاذ أخيه الأسود؟ فهذا زمن الأوضاع المقلوبة والأوراق المختلطة يشك فيها الأمين في معنى الأمانة ويبدو الصدق بنكهة الهلاك والكذب بمذاق النجاة! !

لكن لا بأس.. صدقت يا هاشم فأنا أحتمل كل شيء غير أن تجرعي كأس المذلة ليس في إمكاني.

تراكِ نسيتني يا سارة؟ فأنا لم أنسَ إخفاقي معك وخسارتي لك.. لماذا تفرضين وجودك على خارطتي هنا في مصر وهناك في الحرب وحتى هنا في زنزانتي؟ لقد هزمتُ عدو أمتي وعجزت أن أهزم حبك في صدري أو أهزم ضعفي في حبك.. فليست المعارك كلها قابلة للفوز والخسارة.. ففي معركة الحب لا تخرج منها إلا قتيلاً أو جريحًا.. ضحيتك أنا يا سارة في كل المواقع.

أطلقوا سراحي أخيرًا بعدما عجزوا عن إلصاق تهمة تم إعدادها سلفًا لكن لم يجدوا عليها دليلاً!

ورجعت إلى بيتي.. ما عدت أطيق وحدتي ولا وجودي بين

مكتبة عابث الإلكترونية

الناس.. كيف أستريح وأنا غريب عن ذاتي مفارق لنفسي وحلمي وأملي؟

قابلت "محمد" فأخبرني أنه أجل زفافه على علياء حتى يطمئن على سلامتي.. أفرحني الخبر.. وقلت له: إذًا لم تعد لك حجة.. حان لك أن تدخل قفص الزوجية أيها العصفور الكبير.

جاء موعد الزفاف.. حملت باقة من الزهور لأجمع بها بينهما.. وأنا من يمنحني باقة لأجلك يا سارة؟

علياء.. حافظي على محمد فلم ألقَ بحياتي قلبًا أطيب منه ولا رجلاً أنبل منه.

- سأمنحه قلبي وأظلله بأهدابي.. فهو زوجي وحبيبي.

- وأنت يا محمد حافظ عليها.. فهي جوهرة في زمن المصوغات المزيفة.

أمسكت بيدها ويده وشبكت بينهما لأنسحب الانسحاب الأخير.. تزوجا أيها الطاهران ولتسقي بركات السماء حبكما ليطرح ثمار السعادة.. أخيرًا شعرت ببرد الفرح في قلبي المثقل بالألم.. كانت عيونهما مفعمة بالصدق.. كل منهما يمسك بيد حبيبه.. بيد

مكتبة عابث الإلكترونية

كنزه الحلال.

مرت شهور على زواجهما وأنا كشهاب تائه في جوف الظلام لا هو إلى النجوم ينتمي ولا هو في الأرض يجد مثواه.. جاءني محمد باسمًا:

– علياء حامل.. والطبيب أكد لنا أنه ولد.. قررنا أن نسميه "عاصم".

امتلأت عيناي بالدموع:

– لا يا محمد.. لا تمنحوا هذه الدنيا "عاصم" آخر تعذبه وتفعل به ما فعلت بي.

– ضمني لصدره بحنان صديق.. بحنان أخي الذي فقدته.. وأمي التي رحلت.. وسارة التي خسرتها:

– سيعوضك الله خيرًا.. وسترى "عاصم" الصغير وهو يكبر سعيدًا بين أبويه وعمه عاصم الكبير.

– بارك الله لكما فيه.. أحسن تربيته واجعله مثل أبيه نبيلاً رحيمًا.

مكتبة عابث الإلكترونية

- أخبرني ماذا تنوي أن تفعل يا عاصم.. ألن تعود لعملك؟

- كلا.. فقد قررت السفر إلى لندن فلتحتملني بلاد الغربة إذ لفظني وطني.. الآن فقط أدركت ما كان يشعر به أحمد.. فليس من شيء أثقل وأشد قهرًا من شعورك بأنك مطعون بيد الحبيب الذي تحسبه ظهرك وحاميك.. يد الوطن الذي أردت أن أمنحه الحياة فمنحني الموت.. تمنيت أن أسقيه العسل فسقاني كأس حنظل.. أصبحت أعيش في ظلال اليأس يتسرب إيماني بكل شيء وتتلاشى قناعاتي.. طعم الجراح يغص في حلقي.. سأذهب إلى لندن أكمل دراسة الدكتوراه وأعيش بين الغرباء.. على الأقل بينهم سأفهم لماذا أنا غريب.. أما هنا فغربتي بين قومي الذين يتحدثون بلساني ويأكلون الطعام نفسه ويرددون النكات نفسها.. لم أعد أشعر بدفء شمسنا.. أرى النهر الحزين يسير إلى مصبه خاضعًا ذليلاً وليس عاشقًا يتوق شوقًا للبحر.. الأرض صارت ترفضني وأرفضها.. حتى الهواء يدخل صدري كارهًا وأخرجه أنا مغضبًا.. رافضًا ومرفوضًا.. سأرحل عن مصر فقد أحتمل كل شيء إلا لحظة أشعر فيها أنني أكره وطني.. ما زالت مصر هي قدس الأقداس الذي عجزت عن

مكتبة عابث الإلكترونية

فهمه.. نصلي في محرابها خاشعين ونحن لا ندرك سرَّها.. تعيش فينا على الرغم من الألم.. تجرحنا فنبكي لأجلها.. تقتلنا فنطلب لها الرحمة والحياة.. إذا لم أستطع أن أراها حرة فعلى الأقل برحيلي لن أراها معذبة.. ومن يدري؟ ربما يأتي يوم نعود إليها بقلب جديد وأمل جديد وحلم جديد نحققه على أرض واقعها ولا تستطيع غربان الليل إجهاضه.. أما الآن فلم يعد أمامي سوى الرحيل يا محمد.

– لك الله يا صديقي.. لك الله يا رفيق العمر.. متى ستسافر؟

– بعد أيام ثلاثة.. فقد أعددت كل شيء واتصلت بأمي أخبرتها بأمر سفري.

جاء محمد ليوصلني إلى المطار.. وعلى بوابة الفراق وقف باكيًا: هل سنفترق؟

كيف لي أن أتخيل وجودي بمصر من دونك يا صديقي الوحيد؟!

ابتسمت وقبلت جبينه: لا بأس يا محمد.. هذه أقداري وسأحتملها بصبر رجل.. فقد جئت إلى هذا العالم في التوقيت

مكتبة عابث الإلكترونية

السيئ.. دائمًا كانت تسبقني السعادة بخطوة أو أسبقها أنا بخطوة.. لكن لم نلتقِ أبدًا لا في الزمان ولا في المكان.. فالسعادة ليست مقرونة بأسبابها فقط.. لكن بتوقيتها أيضًا.

إن لم تأتِ السعادة في وقتها استحالت حزنًا ومأساة.. ذهب أخي إلى العراق في التوقيت السيئ وعاد لمصر في التوقيت الأسوأ.. وأحببت أنا سارة حينما كانت غارقة في حب غيري وأحبتني هي في الوقت الذي قررت فيه أن ترحل عني.. بحثت عن حرية الوطن في زمن السجن الكبير وبحث عني الوطن في وقت لا يصلح إلا للغربة والضياع.. هكذا تجري الأمور دائمًا.. فلا تتحقق الأشياء الرائعة إلا في التوقيت السيئ والموعد غير المناسب. وداعًا يا محمد.. وداعًا يا صديقي.

صعدت إلى الطائرة وظل السؤال يتردد في داخلي في سنوات الغربة ومواطن الغرباء:

هل أنا من أسأت لك يا مصر.. أم أنتِ من أساء لي؟ فنحن لا نرحل عن أوطاننا إلا بعد أن ترحل هي عنّا أولاً.

مكتبة عابث الإلكترونية

مكتبة عابث الإلكترونية